وزارة المعارف العمومية

أدب الإسلام

للمدارس الثانوية

الجزء الثالث

لتلاميذ السنة الثالثة

ألفه بتكليف خاص من وزارة المعارف الأساتذة

محمد ابو بكر ابراهيم — مصطفى خفاجى

على محمد حسب الله — محمد عبد الرءوف بهنسى

اشترك فى تأليفه وراجعه الأستاذان

محمد أحمد جاد المولى بك — على الجارم بك

القاهرة

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية

٤٠ شارع نوبار باشا (سابقا شارع الدواوين)

١٩٣٨

وزارة المعارف العمومية

أدب الإسلام

للمدارس الثانوية

الجزء الثالث

لتلاميذ السنة الثالثة

ألفه بتكليف خاص من وزارة المعارف الأساتذة

محمد ابو بكر ابراهيم — مصطفى خفاجي

على محمد حسب الله — محمد عبد الرءوف بهنسى

اشترك فى تأليفه وراجعه الأستاذان

محمد أحمد جاد المولى بك — على الجارم بك

القاهرة

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية

٤٠ شارع نوبار باشا (سابقا شارع الدواوين)

١٩٣٨

بسم الله الرحمن الرحيم

نَحْمَدُكَ اللَّهُمَّ استتماماً لنعمتك ، وإقراراً بربوبيَّتك ، ونَستعينُك مفتقرين إلى هدايتك التى كشفَتْ عن القلوب حُجُبَ الظلام ؛ فكانت أَمْناً لمن تعلَّق بها ، وسِلْماً لمن دَخَلها ، وبرهاناً لمن تكلَّم بها ، وتَبْصِرةً لمن عزم ، وعبرةً لمن اتَّعظ ، ونجاةً لمن صدَق .

ونُصلِّى ونسلمُ على نبيك الكريم الذى أرسلتَه بالدين الحنيفِ ؛ ليتمِّمَ مكارمَ الأخلاق ، ويدعوَ إلى الحقِّ فى جميع الآفاق .

اللهمَّ صلِّ وسلم عليه وعلى جميع الرسل والأنبياءِ والآل والصِّحاب .

وبعـد . فهذا كتاب نقدِّمه للناشئة المثقَّفةِ ، جمع بعضَ ما يشتمل عليه الإسلامُ من كريم الآداب وأحاسنِ الأخلاق ، ومن الحِكَمِ الغالية والأغراضِ العالية ، وما تضمّنه من التشريع السامى الذى رفع الجنسَ البشرىَّ إلى أشرف منزلة وأرفع أَوْج . هذا إلى تفسيرِ كثيرٍ من الآيات الشريفة ، والأحاديثِ الكريمةِ التى جمعت من الأحكام ما فيه سعادةُ الدنيا والآخرة .

وقد جاء هذا الكتاب على وَفْق المنهج الأخير الذى وضعته وزارة المعارف لطلبة المدارس الثانوية لإحياء الدين فى نفوسهم وتطهيرِها من شوائبِ السُّوءِ وطبعهم على شريف الأخلاق وكريم الخلال .

واللهَ نرجو أن يكون لكتابنا هذا من الأَثَر النافع ما يحقّق آمالَنا .

وبالله وحدَه التوفيق .

ذو القعدة سنة ١٣٥٦ هـ
يناير سنة ١٩٣٨ م

المؤلفون

الآداب الاسلامية

جاء الإسلامُ حافلاً بالآداب الدينية والأخلاقِ الفاضلة والصفاتِ النبيلة التى تهذِّبُ النفوسَ وتطهرُها وتزكيها وترفعها إلى مرتبة تقرُب من الكمال ، وتجعلُ الفرد نافعاً لنفسه خاصة وللمجتمع البشرى عامةً ؛ فقد اتخذَ الإسلام من وسائل التأديب والتهذيبِ أوفاها وأقومَها . ومن ذرائع التربية والتعليم أنبلَها وأنجعَها: «إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ».

وقصد الإسلامُ أن يجعلَ من الإنسان فى ذاته مثلاصالحاً فلا يصدُر منه ما يوجب الذمَّ واللوم ، ولا يقع منه ما يُخلُّ بالمروءة ، أو يقلِّل من قيمته أو يحطّ من قدرهِ ؛ فلا تلقاه إلا محمودَ الخصال، ولا تراه إلا شريفَ الشمائل كريمَ الخلال : إن نطق صدق وقال الكلمة الطيبة، وجامل فى حديثه ، وجانَب الخشونة ، وعقَل لسانَه إلا عن حق يوضّحُه ، أو باطل يدْحضُه ، أو حكمة ينشرُها ، أو نعمة يذكرُها ، كما قال تعالى خطابا لنبيه :

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ؛ إِنَّ الشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ؛ إِنَّ الشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا)

والمسلم الحقُّ هو الذى إن وعد وفىَ وحقق ، و إن ائتُمن لم يخن ، و إن تمكن من فعل محرم عفَّ وكفَّ ، وإن رأى منكرا غيَّره ، وإن تكلَّم غضَّ من صوته ، و إن مشى لم يختَل فى مِشْيته ، و إن رأى كبيراً وقَّره ، و إن مرَّ بلغوٍ من القول تجنّبه ، وهكذا يتصف المسلمُ بكل خَصْلةٍ حميدة ، وصفةٍ شريفة .

أجل إن الإسلامَ قد بين أحسن الآداب وأجملَ الأخلاق الذاتية والاجتماعية في غير ما موضع من القرءان الكريم. ومن ذلك قولُ الله تعالى حاكياً عن لقمان عليه السلام يوصي ابنه :

(يَبُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَآ أَصَابَكَ؛ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ * وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا؛ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ؛ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ) .

وقد قبّح الإسلامُ السُخْريةَ بالناس ولَمْزَهم والتنابُزَ بالألقاب وسوءَ الظن فقال تعالى :

(يَٰأَيُّهَا الذين ءامَنُوا لا يَسْخَرْ قومٌ مِّن قومٍ عَسَىٰ أنْ يَكُونُوا خَيْراً مِّنهم ، وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ ، وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ ، وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَٰبِ ، بِئْسَ ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ، وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءامَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُوا ، وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ ، وَٱتَّقُوا ٱللهَ إِنَّ ٱللهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ *)

ففي هذه الآيات الكريمة أرشد الله إلى الصفات الحسنة وهي : ألا يسخَرَ أحد من أحد أو يستخفَّ به ويستحقره ، وألا يعيب على أحد بشيء يكرهه ، وألا يسيء ظنه بفرد من إخوانه ، وألا يبحث عن عورات الناس

ومعايبهم ويستكشف عما ستروه ، وألا يذكر غيره بما يكرهه فى غيبته سواء أكان ذلك باللسان أم بالفعل .

وحظَر الشرعُ على الإنسان أن يتّبع ما ليس له به علم فقال تعالى :

(وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) .

ونهاه عن التجبر والتبختر والعُجْب فإن ذلك دليلٌ على جهل المرء بمقدار نفسه وعماه عن غيِّها .

وأمر الشرعُ كل إنسان أن يَبَرَّ والديه ؛ لما لهما عليه من حقوق لا بد من أدائها ، وواجبات لا بد من قضائها ، وأن يمتثل أوامرهما وبخاصة ما يعود عليه بالمنفعة : كالأوامر المتعلقة بحسن السلوك ومكارم الأخلاق وحسن معاشرة الناس والنظافة والعفة والأمانة وغير ذلك من ضروب الكمال ، وأن يجتنب نواهيَهُمَا وكلَّ ما يؤذيهما أو يكدِّرُ خاطرهما أو يجلب غضبهما من قول أو فعل ، فإن أجهد نفسه فى فعل كل ما يرضيهما كان له الحظ الأوفر من الفضيلة ، والنصيب الأكبر من المروءة ومكارم الأخلاق . قال تعالى :

(وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا) .

وأمر الشرعُ المسلمَ بصلة الرَّحِم والمحافظةِ على فعل كل ما يجلب الخيرَ لأقاربه ، فيطعمُهم من جوع ، ويؤْمنهم من خوف ، ويقوم بما يحتاجون إليه ، وبذلك تصفو النفوس وتُسْتَمَالُ القلوب ، ويزول التباغض والتحاسد ولهذا حث الشرع على ذلك ، وبالغ فى التمسك به فقال تعالى :

(وَاتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَٱلْأَرْحَامَ) .

وقد جاء القرءان الكريم مبينا الآداب الاجتماعية على أحسن وجه وأكمله ، مرشداً إلى ما يجب التخلق به فى معاملة أفراد المجتمع من كل ما يجلب رضاهم ومحبتهم حتى تتحد كلمتهم، وتتألف جامعتهم، ويسعوا لأنفسهم فيما يعود عليهم بالخير، ويدفع عنهم الشر والضير، فمن ذلك ما حث الله سبحانه عليه من مقابلة الإساءة بالإحسان ، فقال :

(ولا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ ولا السَّيِّئَةُ . ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ) .

ومن الآدابِ الإسلاميةِ الإيثارُ وهو تفضيل المرءِ غيرَه على نفسه ، وتقديمُ المصلحة العامة على المصلحة الخاصة كما قال تعالى فى مدح الأنصار الذين آوَوْا المهاجرين ، وآثروهم على أنفسهم ، وقاسموهم ما لديهم من متاع وأموال : (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) .

كما حضَّ الإسلام على أن يُحِبَّ المرءُ لغيره ما يُحِبُّ لنفسه ، ويكرهَ له ما يكرهُ لها ، فقال صلى الله عليه وسلم (لا يؤمنُ أحدُكم حتى يُحِبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفسِهِ) .

فالإسلام قد جاء بكثير من الآداب التى تجعل المرءَ عضواً نافعاً فى المجتمعِ الإنسانى .

ومن الآداب التى أمر بها الإسلامُ الإخلاصُ والنصيحةُ . قال عليه الصلاة والسلام : (الدينُ النصيحةُ . قلنا لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمةِ المسلمين وعامَّتِهم) ، فهذا حديث عظيم الشأن أوجز فيه النبى صلى الله عليه وسلم أنواع الإخلاص التى عليها مدار السعادتين الدنيوية والأخروية .

فالإخلاص لله معناه منصرف إلى الإيمان به ونفيِ الشِّرْكِ عنه ، وتركِ

الإلحاد فى الدين ، ووصفِ الله بصفات الكمال والجلال كلها ، وتنزيهه سبحانه وتعالى من جميع النقائص ، والقيامِ بطاعته واجتنابِ معصيته ، وموالاةِ من أطاعه ومعاداةِ من عصاه ، وجهادِ من كفر به ، والاعتراف بنعمته وشكرِه عليها ، وتخليصِ جميع الأمور من الشوائب كلِّها حتى يتجرّدَ فيها المرء إلى التقرّب إلى الله تعالى؛ فلا يكونَ فى نفسه باعثٌ سواه . وهذا هو الإخلاص حقا ، ومن أخذ نفسه به فقد تأدب مع خالقه الذى خلقه وسوّاه وجعله إنسانا مميَّزا عن سائر الحيوان بالعقل والبيان .

ومن الآدابِ الإسلامية : الإخلاصُ لكتاب الله بالوقوف على أحكامه وتفهُّمِ علومه ، والاعتبارِ بمواعظه والعملِ به . والإخلاصُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم يكون بتصديقه والإيمانِ بجميع ما جاء به وطاعتِه فى أمره ونهيه ، وإحياءِ طريقته وسنَّته ، وبثِّ دعوته ، ونشرِ شريعته ، والتخلقِ بأخلاقه والتأدبِ بآدابه ، ومحبته محبةً تفوقُ محبَّةَ الأهلِ والمال والناس أجمعين . فإن فعل المرء ذلك فقد تمكن الإيمان من قلبه ، وتأدبت نفسُه بآداب الدين العليا ، واستمسك بعروة الله الوثقى . وإذا أطاع المرء كتابَ الله وما جاء به رسوله فقد أطاع الله، واهتدى بهديه فى سرّه وعلانيته .

والإخلاصُ لأئمة المسلمين يكون بمعاونتهم على الحق وطاعتِهم فيه ، وإحسانِ الظن بهم ، وقبولِ ما يأتون به ، وتركِ الخروج عليهم ، وتأليفِ قلوب الناس على طاعتهم .

ومن الآداب الرائعة التى جاء بها الإسلام الإخلاصُ لعامة المسلمين بإرشادهم لمصالحهم فى آخرتهم ودنياهم ، وكفِّ الأذى عنهم ، وسترِ معايبهم

وسدِّ خَلاَّتهم ، ودفعِ المضار عنهم ، وجلبِ المنافع لهم ، وأمرِهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر برفق و إخلاص ، والشفقةِ عليهم والرحمة بهم ، وترك غشهم وخداعِهم ، والذَبِّ عن أموالهم وأعراضهم وغير ذلك من أحوالهم

وبَدَهِيٌّ أن الدينَ الإسلامى قد أتى بهذه الآداب لأخذ النفس بوسائل التربية والتهذيبِ والتأديب ؛ حتى تطهُرَ من كل خبيث ، وتصفوَ من كل منكر ، وتصلَ إلى درجة الكمال . ومن هنا تتأدب النفس مع خالقها بعبادته حق العبادة ، وتتأدب مع المجتمع ؛ فيعيشُ المرء سعيداً فى الحياة الدنيا ، و يجزى جزاء حسناً فى الآخرة .

وسنشرح فيما يلى بإسهاب أنواع أدب الإنسان مع خالقه ومع المجتمع البشرى .

(ا) أدب الانسان مع خالقه

١ — حب الله والاخلاص له

حثَّ الدينُ وعمِل على إشعار النفوس بعظمة الله وقدرته وخشيته وذلك بعبادته عبادة خالصةً ، والخضوع له فيما أمر ونهى ، والاعتقادِ بأنه جلَّ شأنه له الخلق والأمر وهو الواحد القهار ، أنزل فى كتابه العزيز :

(إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَآءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰ إِثْماً عَظِيماً) . وقال تعالى : (فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ ٱلدِّينَ ، أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ) .

والدين الخالص إنما يتحقق بتمجيده وحده والأيمانِ به جل شأنه

وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإخلاص فى العبادة وتأديتها فى السر والجهر، وإطاعة الله: (وَمَن يُطِعِ اللهَ والرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ والشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقاً).

ومن إخلاص المرء لخالقه حبُّه حباً صادقاً، لأن المحبة تحمل على الطاعة والانقياد والاستسلام، وتؤدى إلى الرضا بقضاء الله وقدره، وتنفيذ المأمورات والبعد عن المنهيات، واتباع ما جاء به الرسول الأمين كما قال تعالى:

(قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ: قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ).

ومعنى هذه الآية أن الانسان إذا أخلص الحب لله فإنه يتبع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لأنه من عند الله، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحى يوحى، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصى الله — وأن المرء الذى يمتثل ويطيع ويؤمن بالله يحبه الله ويغفرُ له ذنوبه ويمحو عنه سيئاته: (وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ).

وقال صلى الله عليه وسلم (ثلاث مَنْ كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يُحبَّ المرءَ لا يُحبه إلا لله، وأن يكرَهَ أن يعودَ فى الكفر كما يكرَهُ أن يُقْذَف فى النار).

ومن الإخلاص لله جل وعلا تقواه وخشيتُه، والبعدُ عن السيئات والمحرمات، مع الإكثار من التوبة والاستغفار ومراقبته فى السر والعلن،

والقيامُ بواجب العبادات ، والنيةُ الخالصة بأن يتوجه الإنسان بقلبه وجوارحه إلى الخالق جل شأنه توجهاً صادقاً لا يشو به رياء ، ولا يكدِّرُ صفوَه نفاق؛ فتنشطَ نفسه لعبادته وطاعته ومراقبته وتمجيده، وتطهُرَ من أدرانها، وتخلُصَ من شوائبها، ويفوزَ بسبب ذلك في الدنيا والآخرة : (وأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ) .

وكل عبادة صادرة من غير إخلاص إنما هي ضلال مبين، وإثم كبير؛ إذ تؤدي إلى غضب الله وسخطه ، ولا ينال صاحبها سوى المقت والعذاب الأليم كما قال تعالى :

(وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ) .

فالمعول عليه في العبادة : النِّيَّةُ الخالصة ، والايمانُ الصادق ، والعقيدةُ الثابتة قال صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمالُ بالنِّيَّات، وإنما لكل امرئ مانوى)

وقال بعض السلف الصالح: (ربَّ عملٍ صغير تُعظِّمُه النية، وربَّ عمل كبير تُصْغِره النية) . على أن النية الصالحة هي في نفسها خير . وإن تعذر العمل فان ثوابها عند الله باق لاحقٌ بصاحبها ، وهي عماد الابتعاد عن الرذائل وتجنب المساوي والشرور .

والاخلاص سواء في العبادات أو المعاملات يوصِّل إلى جميع المكارم ويفتح أبوابَ الخير ، ويأتي بالسلم والطمأنينةِ ، ويدعو إلى راحة النفس وتفرُّغِها للعمل الصالح . قال صلى الله عليه وسلم : (لا يؤمِنُ أحدُكم حتى يكونَ اللهُ ورسولُهُ أَحَبَّ إليه مما سواهما)

والاخلاص فى العبادة أن تعبد الله حبًّا لله ، واعتقادا أنه الواحد المعبود بحق ، وأن تقوم بجميع الواجبات الدينية طواعية واختياراً ، لا استكراها ، ولا انتظاراً لمثوبة ، ولا رياء فى أدائها ؛ فان الذين يؤدونها غير مخلصين هم المنافقون المراءون الكاذبون الذين يخادعون الله والذين آمنوا ؛ وما يخدعون إلا أنفسهم ومايشعرون . وهؤلاء (يَسْتَخْفُونَ من النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ من اللهِ وهو معهم) ، ويتخذون الرياء ستاراً يُخفِي سيئاتهم ويحجُبُها عن الأنظار ، ولكن الله يعلم سرهم ونجواهم وما تنطوى عليه نفوسهم : (يَعْلَمُ خائنةَ الأعْيُنِ وما تُخْفِى الصُّدُورُ) وقد قضى الله على هؤلاء المنافقين بأنهم (فى الدَّرْكِ الأسفلِ من النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً)

أما الاخلاص لله فيربى النفوس والضمائر ويهذبُها ويزكِّيها ، ويقرّبُ المؤمنَ من ربه وجنته ورضوانهِ .

٢ — الرضاء بقضاء الله وقدره

خلق الله الإنسان وأودع فيه العقل الذى ينير له سبل الحياة ، ويبين له طرقَ الخير والشر ، كما وهب له إرادة ليختار أقومَ السبل التى توصِّله إلى السعادة فى الدنيا والآخرة . فإن صلَح العقل وصلَحت الإرادة وصل العبد إلى ما هو مرغوب فيه من أغراض فى الدنيا والآخرة ، وإلا انعكست الحال وساء المآل . فالإنسان حر مختار فى أقواله وأفعاله ؛ وعلى حسب إرادته ونزَعاته أو نزغاته يكون اتجاهه فى هذه الحياة كما قال الله تعالى : (وهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ) أى طريقى الخير والشر . ولكن قد يريد الإنسان شيئاً ، ويدبر أمره على حسب ما يعتقد أنه الصوابُ الموصِّلُ إلى النتيجة

المقصودة فيلتوى عليه المقصد، و يخيب مسعاه. فقد يريد إرضاء صديق فيغضبه، وقد يطلب كسب رزق فيفوتُه ، وربما سعى إلى منجاة فسقط فى مهلكة ، فيعود باللائمة على نفسه إن كان لم يُحْكِم النظَر ولم يُعْمِل الفكر فى تقدير الخطة التى انتهجها ، والطريقة التى سلكها ، و يتخذ من خيبته أول مرة واعظا ومرشدا له فى المرة الأخرى، فيعاود العمل من طريق أقوم، و بوسائل أحكم، فإن كان سبب إخفاقه فى مسعاه مناعةَ منافس له فى مطلبه، أو وجود منازع يحول بينه و بين ما يشتهى — اعتقد أن ذلك المنازع أو المنافس هو السبب فى حرمانه ، فانبرى لمناضلته . و إذا لم يكن لتقصيره أو لمنافسة غيره ضَلَعٌ فيما لقى من مصير عمله — كأن هبت ريح فأغرقت بضاعته ، أو نزلت صاعقة فأحرقت منزله ، أو علق آماله بشخص بعينه فمات ، أو بذى منصب فعزل — فإنّه يتجه من ذلك إلى أن فى الكون قوةً أسمى من أن تحيط بها قدرته ، وأن وراء تدبيره سلطانا لا تصل إليه سلطته. فإن كان قد هداه البرهان والدليل إلى أن حوادث الكون بأسره راجعة إلى الله وحده ، وهو المصرف لما فى الكون على مقتضى علمه و إرادته — قنع وخضع ، وردَّ الأمر إلى الله فيما لقِى ، ولكنه مع ذلك لا ينسى نصيبه فيما بقى. فالمؤمن — كما يشهد بالدليل و بالعيان أن قدرة مكون الكائنات فوق كل قوى الممكنات — يشهد أنه فى أعماله الاختيارية قائم بتصريف ما وهب الله له من المدارك والقوى فيما خلقت لأجله . قال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : (قُل لَّنْ يُصِيبَنَا إلاَّ ما كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلَـٰنَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) .

أما البحث فى أننا كيف نوفق بين إرادة الله جل شأنه الفعّال لما يريد

وإرادة الشخص الذى وهبت له حرية الاختيار وحرية الإرادة — فذلك من سر القدَر الذى نهينا عن الخوض فيه . وخلاصة القول أن العبد يكسب بإرادته وقدرته ما هو وسيلة لسعادته . ومن أجل هذا استحق الثناء والحمد والمكافأة على ما يقدمه من أعمال ؛ إذ لو لم تكن له إرادة لم يكن يستحق الجزاء الحسن على ما قدم من أعمال صالحة . ومثل ذلك يقال فيما يكتسبه العبد من سيئات ، ويقترفه من آثام : فإنه لو لم يكن له إرادة فيما فعل ما استحق العقوبة على ما ارتكبه من أعمال سيئة ؛ ولكنه يجزى على عمله ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر وما الله يريد ظلماً للعباد .

ومن الآيات القرءانية الدالة على أنه تعالى خيَّر عباده فى أفعالهم ، وجعلها معلقة بمشيئتهم قوله تعالى : (اعْمَلُوا ما شِئْتُم) وقوله : (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

ومن الآيات الدالة على اعتراف الكفار والعصاة بإسناد أفعالهم إليهم قوله تعالى فى خطاب المجرمين: (مَا سَلَكَكُمْ فى سَقَرَ ؟ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ) .

من أجل هذا وجب أن يسلِّم الإنسان أمره إلى الله وأن يرضى بقضائه وقدره وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لا يؤمن أحدكم حتى يرضى بقدَرِ الله) . وقد كذَّب اللهُ الذين يرتكبون المعاصى والكفر وأنواع الفساد ثم ينسبونها إلى الله وإلى قضائه وقدره ، فقال تعالى فى كتابه العزيز : (وإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا. قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ) .

وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه أُتِىَ إليه بسارق فقال له : ماحملك على هذا ؟ فقال : قضاء الله وقدره . فضرب به عمر ثلاثين سوطاً ثم قطع يده وقال له : قطعت يدك لسرقتك ، وضربتك لكذبك على الله .

وروى عن جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : (يكون فى آخرِ الزمانِ قومٌ يعملون المعاصىَ ثم يقولون : اللهُ قدَّرها علينا . الرادُّ عليهم يومئذ كالشاهر سيفَه فى سبيل الله) .

وقد يظن بعض الذين لم يُنَشَّئوا نشأه دينية ، ولم يتذوَّقُوا طعم الدين، ولم يتغذَّوا بلبانه — أن الرضا بالقضاء والقدر والتوكل أمورٌ تدعو إلى الجمود والخمول والكسل والتأخر ؛ وهو اعتقاد فاسد ، ووَهَم خاطىء : يدل على جهالة جهلاء ، وضلالة عمياء ؛ فإنّ الشرع أمر بالسعى إلى العيش ، وحث على الجِدِّ فى تحصيل الرزق ؛ وكانت دعوته إلى الإيمان بالقضاء والقدر ليكون المرء فى عمله رابط الجأش ، ثابت الجنان ، معتمداً على الله ، مستمداً منه المعونة . ثم هو بعد ذلك لايحزنه فوت المطلوب ، ولا يُبْطره نيل المرغوب ، إذ النتيجة من تقدير الملك القادر . وقد جمع الله تعالى القناعة والرضا بالقضاء والقدر والتوكُّلَ على الله فى قوله تعالى :

(مَآ أصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فى ٱلْأَرْضِ وَلا فى أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَىٰ اللهِ يَسيرٌ * لِّكَيلاَ تَأسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تفْرَحُوا بِمَآ ءاتَـٰكُمْ ، وَاللهُ لا يُحِبُّ كلَّ مُخْتَالٍ فخور) .

فأنت ترى بهذا أن الدين قد دعا إلى هذه الأمور لِغاية سامية، وحكمة عالية ، يتوقف عليها النُّجْحُ فى الأعمال بإتقانها ، وبلوغُ الآمال بإحكام

وسائلها ، هذه الحكمة وتلك الغاية هى غرس الاطمئنان فى النفوس وقت القيام بالعمل ، و إنزال السكينة على القلوب عنـد ظهور نتيجته ولو كانت على غير المنتظر ؛ إذ يعلم العامل أن ما وقع قـد سبق تقديره من الحكيم الخبير ، وأنه ليس له قوة على دفعـه ، بل مما يزيد اطمئنانَه اعتقادُه أن الخير فى الواقع ، وأنه لو اطلع على الغيب لاختار ذلك الواقع ؛ فالخير الحقيق هو ما أراده الله و إن سعى المرء جهده لما يظنه خيراً . قال تعالى : « وَيَدْعُ ٱلْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ »

فخير علاج لمن تجرى عليه الرياح بما لايشتهى هو الرِّضا بالقدر . وأما من لم يعتقد ذلك فيكون فى عمله قَلِقَ الخاطر خوفَ الإخفاق ، مشتتَ الفِكر خشية الزلل ، متوتر الأعصاب خيفة السقوط : ومن فَرَقِهِ تتفرق قواه فيكون عن الإتقان والإجادة بمنجاة ، فيقع فيما يخشاه ، فيُرغى ويُزبد ويُبرق ويرعد ، ويبخَع نفسَه حزناً ، وينتحر غماً ونكداً .

فأين هذا ممن يسير فى عمله مرتكناً على جانب ربه ، راضياً بقضائه ، معتقداً أن ما سيكون وعلى أى وجه يكون هو من آلائه ونعمائه ، فيشكره على السراء والضراء والشدة والرخاء — اللهم إن الفرق بينهما لهو الفرق بين الاطمئنان والقلق ، والأمن والفرَق ، والنجاح والخيبة ، والأمل واليأس .

٣ — حسن الظن بالله

حسن الظن بالله من أهم وجهات الخير ، ولا يتم للمرء إلا إذا وجّه وجهه للذى فطر السموات والأرض مخلصاً له الدين ، مؤمناً بقضائه وقدره ، معتقداً أن الله سبحانه وتعالى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ، ثم إن حسن الظن

بالله يدعو إلى اطمئنان النفس وهـدوء البال وتسليم الأمر له جـل شأنه .
وليس من شـك فى أن الإنسـان مضطر إلى أن يخضع لإرادة الله فى كل أعمـاله وأحواله ، وعليه أن يعمل أقصى جهده ثم يُسـلِّمَ الأمور بعد ذلك لمدبر الكون و يُحسنَ الظن به . فإن أصابه خير أو أصابه ضير رضى وشكر ولم يتبرم من أى شر أو أذى أصابه ، ولم يتململ فى مصيبة أحاطت به . بل يصبر لهـا صبر الـكرام و يعتقد أن لله حكمةً فى ذلك و إن خفيت عليـه .
قال صلى الله عليه وسلم : (لا يموتَنَّ أحدُكم إلا وهو يُحسِنُ الظنَّ بالله عز وجل) وفى الحديث القدسى (يقول الله : أنا عند ظنِّ عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى . ومن تقرَّب إلىَّ شِبْراً تقربتُ إليه ذِراعاً ، ومن تقرَّب إلىَّ ذِراعاً تقربتُ إليه باعاً، و إذا أقبل إلىّ يمشى أقبلت إليه مهرولا) وقال صلى الله عليه وسلم : (إن حسن الظن بالله من عبادة الله) وعلى الإنسان ألاَّ يُسِيءَ الظن بالله إن أصابه شر ؛ فقد يكون ذلك لأجل محدود ثم يعقبه خير عميم وفضل جسيم قال الله تعـالى :

(وعَسَىٰ أن تَـكْرَهُوا شَـيْئاً وهُوَ خَـيْرٌ لَّـكُمْ ، وعَسَىٰ أن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌ لَّـكم)

فما أجمـل حسن الظن بالله وتسـليم الأمر له لتعيش النفس راضـية مرضية آمنة مطمئنة .

٤ — التوكل على الله

التوكل على الله أن نلجأ إليه فى كل شئوننا ، ونعتمد عليه فى جميع أحوالنا فهو نعم المولى ونعم النصير ، وهو جلَّ شأنه مصدر القوة وواهب الهداية إلى

الصراط المستقيم . وقد جاءت الشريعة الإسلامية لتقرير ذلك وتحريم استعانة العبد بأحدٍ غير خالقه فى توفيقه إلى إتمام عمله بعد إحكام البصيرة فيه ، مع تكليفهُ أن يرفع همته إلى استمداد العون منه وحده بعد أن يكون قد أفرغ ما عنده من الجهد فى تصحيح الفكر و إجادة العمل واتخاذ الأسباب التى يراها موصلة إلى غرضه . ولا يسمح العقل والدين لأحد أن يذهب إلى غير ذلك . قال صلى الله عليه وسلم : (لَو أنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ التَّوَكُّلِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَيرَ تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً) و يوضح ذلك ما كان من إرشاده صلى الله عليه وسلم لذلك الأعرابي الذى أراد أن يُسَرِّحَ ناقته فلا يعقلها ولا يُوثقها توكلاً على الله مُذ سمع ما للمتوكلين من الفضل ، فقد قال صلى الله عليه وسلم مُفَسِّرًا معنى هذا التوكل بأوجز عبارة وألطف إشارة (اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ) ففى هذا أمر له باتخاذ السبب حتى لا تَشْرُدَ أو تضلَّ . وقد جاء فى القرآن ما يوجب علينا الاعتماد على الله فى أمورنا وشئوننا فقال تعالى (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) ؛ فلا يجوز الاستعانة بغير الله و إلاَّ كان ذلك ضرباً من الشرك المنهى عنه. وقد نصح رسوله عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عباس عليه الرضوان فقال (إذا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ) وذلك لأن الاستعانة بالله على كمال الأمر تبعث فى النفس قوة و يقيناً وروحاً ، وتشدُّ العزائم ، وتُحيي الآمال ، وتذكِّر بالخالق جل شأنه و بعظمته وجبروته وقدرته .

والتوكلُ على الله عنوانُ الهدى والصلاح : فمتى اعتمد الإنسان على ربه واستمد منه الهداية والمعونة كان أثبتَ جَناناً ، وأكثر اطمئناناً ، فبلغ ما تتوق إليه نفسه من جلائل الأعمال . فثِق بالله فوق ثقتك بنفسك

دون تفريط ولا إفراط . واصحَب اعتمادَك على الله بالجدّ جُهْدَ استطاعتك إذ الأسباب مربوطة بالمسببات : فالاجتهاد مطيةُ النجاح ، والزراعةُ وسيلة الحصاد ، والتجارة طريق الربح والكسب ، والكسل أساس الخيبة والفقر . ولكن يجب أن تمتلىء الأفئدةُ بأن الأسبابَ لا قيمة لها ما لم تلحظها عناية الله ، وتؤيدْها قدرته إذ بيده مقاليد السموات والأرض وهو على كل شىء قدير . قال الشاعر :

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى فأولُ ما يجنى عليه اجتهادُه

وقد يهلِك الإنسانُ من باب أمنه وينجو بإذن الله من حيث يحذَرُ

وقد قيل : — الجُبْنُ قد يسبق جُهْدَ الحريص ، وقد تكون منية المتمنِّى فى أمنيته. وقال تعالى: (وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا) وقال مخاطباً نبيّه : (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) وقال تعالى (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ).

ولا ينافى التوكلَ على الله أن يسعى المرء فى دفع ضرر متوقَّع حصولُه للنفس أو المال — أمّا ما يضر النفس فكالنوم فى مَسْبعة أو مجرى سيل أو تحت جدارٍ مائل أو سقف متداع . فكل ذلك منهى عنه ، وصاحبه قد عرّض نفسه للهلاك بغير فائدة .

وأما المال فليس من التوكل عدمُ إغلاق باب البيت مثلا عند الخروج، ولا عدم عقل البعير ولا نحو ذلك؛ لأن هذه أسباب عُرِفت بسنة الله تعالى قطعاً أو ظناً . ولذا قال تعالى :

« خُذُوا حِذْرَكُمْ » وقال « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّة وَمِن رِبَاطِ الخَيْلِ »

وفى اختفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار عن أعين الأعداء ، دفعاً للضرر ، ما يبين لنا ضرورة السعى والعمل والأخذ بالأسباب . فكيف لا يكون الآخذ بهذه الأسباب راضياً متوكلا ؟

إن من أخذ سلاحه حذراً من العدو ، وأغلق بابه خوفاً من اللص ، وعقل بعيره خشية أن ينطلق — فهو متوكل راض ؛ لأنه لم يعتمد على هذه الأسباب بل على من سبَّبَها ، وجرى على مقتضى سنةِ الله فى ترتيب المسببات على أسبابها .

و إن الوقاية من المرض لا تنافى الرضا والتوكل ؛ فقد أمرنا الدين بالفرار من المجذوم كما نفرّ من الأسد . والتَّداوى غير مناقضٍ للرضا والتوكل . يدل على ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره وفعله :

أمَّا قولُه فقد قال صلى الله عليه وسلم : « مَا مِنْ دَاءٍ إِلاَّ وَلَهُ دَوَاءٌ عَرَفَهُ مَنْ عَرَفَهُ ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ إِلاَّ السَّامُ » يعنى الموت . وقال عليه السلام : « تَدَاوَوْا عِبَادَ اللهِ فَإِنَّ اللهَ خَلَقَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ » وسئل عن الدواء والرُّقَى هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ فقال : « هِيَ مِنْ قَدَرِ اللهِ » .

وأما أمره صلى الله عليه وسلم فقد أمر غير واحد من الصحابة بالتَّداوى والحِمْيَة .

وأما فعله فقد تداوى صلى الله عليه وسلم من العقرب وغيرها .

وقد صُنِّف فى ذلك كتاب سمّى : طِبّ النبى صلى الله عليه وسلم . فالله سبحانه وتعالى قد أجرى سنَّتَه بربط الأسباب بالمسببات إظهاراً للحكمة : والأدوية أسباب مُسَخَّرة بحكم الله تعالى كسائر الأسباب .

٥ — مراقبة الله فى السر والعلن

من أدب المرء نحو خالقه امتثال أوامره جل شأنه ، واجتناب نواهيه ، ومراقبتهُ فى كل عمل من أعماله ، وفى جميع حركاته وسكناته . وتكون المراقبة بأمور :

تكون باستحضار الانسانِ ذاتَه العلية فى ذهنه ، وتمثُّلِ عظمته تعالى بقلبه ، وانبعاثِ الخشية والخشوع من جميع جوارحه ، واطمئنانِ نفسه بالمثول بين يديه ، وملاحظةِ أن الله يراه حيثما كان . وهذا هو معنى الإحسان الذى ذكره صلى الله عليه وسلم فى قوله (الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَم تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) .

وتكون المراقبة أيضاً — إذا ما همّت نفس المرء بمعصية — بأن يتذكر أن عليه رقيباً قريباً يعلم ماتوسوس به نفسه، ويخفيه صدره، ويسمع ويبصر دبيب النمل فى الليلة الظلماء . فعند ذلك يخشع قلبه ، وتستكنّ جوارحه ، ويتملك الخوفُ فؤاده ؛ فيجتنب القبيح وينفر منه ، ويُحجم عن المنكر ويبغضه ، وبذلك تتم له السعادة الحقيقية فى الدنيا والآخرة .

ومراقبة الله تعالى ثمرة من ثمرات التقوى . وهى جامعة لكل أنواع البرّ كافلة لصاحبها كل خير ، مبعدة عنه كل شر ، ولذلك أكثر الله جل شأنه فى القرآن الكريم من الحث عليها مبيناً ما يترتب عليها من صلاح الدنيا ورفيع الدرجات فى الآخرة . من ذلك قوله تعالى :

(يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَٰهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ) .

فالآيَةُ الكريمَةُ ناطِقَةٌ بِثَلاثَةِ أُمُور :

الأول : الحثُّ على التقوى وهى الخوف من الله بامتثال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه .

الثانى : الحثُّ على العمل الصالح ومحاسبةِ الإنسان نفسَه قبل أن يُحاسَبَ ، والنظرُ فيما ادّخره من الأعمال الصالحة ليوم معاده وعَرْضِه على رَبِّه ، ومطالبة نفسه بالترفع والبعد عن الإسفاف إلى ما هو قبيح من الأعمال والأفكار وفى قيامه وقعوده وكلامه وأكله وشربه ونومه وفى جميع حالاته التى تصدر منه . فاذا وجد نفسه مع ذلك اقترفت ذنباً أو ارتكبت تقصيراً فى حق الله تعالى وجب عليه أن يعاقبها ، وعقوبتها إما بمنعها عن مشتهياتها ، وإما بتوبيخها الشديد ، أو بلومها اللومَ الصارم حتى تحصل له التوبة الصالحة الحقيقية . وما التوبةُ والندم على ما فات والألم النفسى الذى يحدث إلا نتيجة لمعرفة المرء ربَّه حق المعرفة ، ومراقبته فى السر والعلن . لأنه ينتقل من ذلك التأنيب إلى إصلاح نفسه والهيمنة عليها ، ويدأب على عمل الخير ونصرة الحق ، ويبتعد عن كل ما يستوجب غضب الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

أما إذا لم يحاسب المرء نفسه ولم يعاقبها عند حدوث تقصير منها فانها تستمرئُ المعاصى ، فيصعب عليه قيادها ، ويعسر فِطامها ؛ لأن النفس أمارة بالسوء ، تنقاد إلى الشر وإلى شهواتها الجامحة مالم يكن هناك رادعٌ يردعها ، أو زاجر يزجرها ، أو وازع دينى يُهذبها ويردها . وإنّ تمثُّلَ عظمة الله ومراقبتَه والخوفَ من بطشه لمدعاة إلى وقوف النفس عند حدّها غيرَ

متعرضة لمقت الله وغضبه وشديدعقابه ، بل إنها لتتجمّلُ بالفضائل والآداب والأخلاق السامية إذا ما اتّجهت نحو الإله الذى يعلم السِّرَّ وأخفى .

وإلى هذه المحاسبة يشير الله تعالى بقوله : (وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ . وَاتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) أى حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسَبوا ، وفكروا فيما ادّخرتم لها من الأعمال الصالحة ليوم عرضكم على ربكم ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى اللهَ بقلبٍ سليم . واعلموا أن الله تعالى عالم بجميع أحوالكم وأعمالكم ، لا تخفى عليه منكم خافية ؛ فيجازيكم عليها إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

الثالث — الحث على مداومة استحضار عظمة الله وجلاله ؛ لأن دوامَ مراقبته جل شأنه فى جميع الأعمال والأحوال ، ودوامَ الخشيةِ والخوفِ من سوء الحساب فى الدار الآخرة مما يوطّن قلب العبد على طاعة الله تعالى وامتثال أوامره واجتناب نواهيه . والغفلة عن الله تعالى وجليلِ قدرته تورث الغفلة عن العمل الصالح الذى يرفع الأمم ويسعدها . ومن خرج عن صراط الله السوى فقد ضل سواء السبيل .

٦ — شكره على ما أسبغ من نعم

مما جاء به الإسلام لإصلاح النفوس وتقويم الأخلاق وجوب تعظيم الخالق وأداءِ بعض شكره على نعمه التى لا تحصى ؛ فإنه سبحانه خالقنا ورازقنا ومعيننا ومجازينا على أعمالنا وأفعالنا جزاءً كريما : السيئة بمثلها ، والحسنة بعشر أمثالها كما هو صريح القرآن والسُّنَّة . ويكون الشكر لله بتصور النعمة فى القلب ، والتحدث بها ، وترطيب اللسان بحمده جل شأنه ،

وامتثال أمره واجتناب نهيه ، وصرف ما أنعم به على الإنسان من صحة ومال وعلم وجاه فيما ينفعه وينفع الناس ؛ فقد وعد بإثابة الشاكرين فى قوله : « وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ » كما تفضل بعدم عذابهم فى قوله جل شأنه : « مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ » وأمر بالشكر عباده فقال: « فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ، وَاشْكُرُوا لِى وَلَا تَكْفُرُونِ »؛ فيجب أن نشكر الله بأعمالنا كشكره بألسنتنا ؛ فإننا مدينون له بحياتنا وكل ما نتمتع به من النعم ؛ قال تعالى : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا » فليس شكره تعالى ثمناً لنعمه ؛ فإنها تجل عن كل ثمن ، وينقطع دون الوفاء بحقها كل حمد وثناء ، وإنما هو للاستزادة من فضله وكرمه ؛ فإنّ شكرَ المنعم على إنعامه يزيد فى النعمة ويحفظها ويصونها ؛ قال تعالى : « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ، وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ » ذلك لأن الشكر يجعل العبد ذاكراً ربه قانتاً عابداً متعلقاً بخالقه ، فيأمنُ الغفلة عنه سبحانه بما قد يستولى على قلبه من شواغل الدنيا . وقدقال تعالى : « وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ » . فالشاكر للنعمة الذاكر لفضل الله عليه يحجم عن العصيان ، ويبتعد عن الفسوق والمآثم، ويتصرف فى النعم التى أسبغها الله عليه تصرفا حميداً . على أن كفران النعمة يعرضها للزوال ، ويلبس صاحبه النقمة والإهانة . فلا زوال للنعمة إذا شُكرَت ، ولا دوام لها إذا كُفِرت . لأن الجحود وكفر النعمة والبطَرَ أخلاق ذميمة تدنّس النفس وتجعلها بعيدة عن الفضائل وعن رحمة الله . فإذا لم نُشْعِر قلوبَنا شكرَه على ما أسبغ علينا من آلائه كنا قد أتينا أشنع أنواع الجحود . ألا ترى أننا نتألم ممن لا يسدى الشكر لمن أحسن إليه ! كذلك لا يمكن أن

نكون أحباء الله من غير أن نشكره قولا وعملا .

ولا ينبغى أن تقول إن الله غير محتاج إلى إجلالنا وشكرنا إياه فإن ما للمحسن من عظمة لايبرئنا مما علينا من الواجبات . فعلينا أن نشكره وإن لم ينله شيء من شكرنا أو جحودنا. وشكر الله — وإن كان لاينفعه — مفيد لنا ؛ إذ هو يطهِّر نفوسَنا ويقرِّبنا من الله ويجعلنا أحباءه المخلصين ، ويوجه إرادتنا إلى الوجهة الصالحة فى إنفاق النعم فى وجوهها المشروعة النافعة ، أما الجحود فيجعل المرء غير مبال بما يعمل أو ينفق ؛ فيسير على غير هدى، ويبدِّد الثروة تبديداً لا قيام بعده، ويتلف ما أنعم الله به عليه من نعم الصحة والعافية والسلامة إتلافا قد يجيء من ورائه هلاك محقق وعذاب أليم . فكم من أمم قد أنعم الله عليها بنعم لا تحصى فكفرت بأنعم الله فذاقت وبال أمرها وكان عاقبةُ أمرها خُسْراً . ولقد أنصف بعض بنى أمية إذ سئل بعد زوال ملكهم وانقراض سعادتهم وانقضاء دولتهم: «ما كان سبب هذا الحادث المجحف بكم ، والبلاء النازل عليكم » فقال : « قلة شكرنا لِله على ما أنعم الله به علينا ، واشتغالُنا بلذتنا عن النظر فى مصالحنا »

فكفران النعم يعرضها للزوال والنفاد ، ويلبس جاحدها لباس النقمة بين العباد ، وفى قضية مكة وحال أهلها عبرةٌ لمن استبصر ، وموعظة لمن تذكر ، فان الله تعالى قد أفاض على أهلها سوابغ نعمه ، وجعلها بلدة آمنة ، وشرّفها بحرمه ، ويمنح أهلها من لطائف رفدِه فضلا ومنًّا ، وأوسعهم غنى وأمناً . فقال تعالى فى كتابه العزيز : « أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً ءامِناً يُجْبَىَ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا »

ثم بعث فيهم محمداً عليه الصلاة والسلام رسولاً من أنفسهم ، فدعاهم

إلى الإيمان فكذبوه وكفروا بنعمة الله التى أنعمها عليهم ، فسلط الله عليهم أنواع الانتقام ، وضرب بهم المثل لذوى الأفهام فقال سبحانه وتعالى :
« وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا من كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنهم فَكَذَّبُوه فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ * فكلوا مما رزقكم اللهُ حَلَٰلاً طَيِّباً واشْكُروا نِعْمَتَ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * »

على أن الشكر دلالة على العبادة الحقة ، وحسن التوجه إلى الله . وقد مدح الله إبراهيم عليه السلام لقيامه بواجب شكر النعمة نحو خالقه فقال تعالى:

« إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ من المشركين * شاكِراً لِأَنْعُمِهِ ، اُجْتَبَٰهُ وَهَدَيٰهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَءَاتَيْنَٰهُ فى الدُّنْيَا حَسَنَةً وإنه فى الآخرة لَمِنَ الصَّٰلِحِينَ »

ويفهم مما تقدم أن شكر الله على نعمه هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه إلى ماخلق لأجله . وفى هذا تنبيه لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

٧ — التفكر والتدبر فى بديع صنع الله ومُحْكَمَ خلقه

إن الله جلّت قدرته خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، وميّزه عن سواه من المخلوقات بالعقل ، وبرأه بفطرة أعلى من فطرة سائر أنواع الحيوان ، وأودع فيه قوى التفكر والتدبر والتبصر ، وجعله مستعداً لإدراك كثير

من المعلومات التى توصله إلى الكمال المقدّر له ، وتنهض بروحه إلى رتبة عالية ودرجة سامية .

وقد حضّ الدينُ الإسلامى على أن يُعْمل الانسان فكره فى هذا الكون ويتدبر ما فيه من آيات الله البينات وآثاره الظاهرة الباهرة : بأن يتأمل ملكوت السموات والأرض ، فينظر بعين الفاحص المدقق فى السماء وما فيها من شموس وأقمار ونجوم وكواكب ، ويبحث فى الأرض وما عليها من جبال ونِجاد ووهاد ومغاور وحيوان وطيور ، وجميع ما تخرجه من نبات وزرع ومعادن .

ويمعن النظر فى الكائنات وبديع صنعها ، وإحكام ترتيبها ، وعجيب إبداعها ، ودقيق نظامها ؛ ليصل به البحث إلى معرفة الخالق الواحد الأحد الذى خلق كل شىء فأحسن خَلْقَه وأبدع صنعه، وليكون إيمانه صادقاً مبنياً على أساس متين من الأدلة والبراهين . ولذلك دعا الله عباده فى كتابه العزيز إلى التفكر فى الموجودات ليستدلوا منها على ماله من صفات الوجود والوحدانية والكمال والجلال ، ويقفوا على قدرته وعلمه وتمام حكمته ورحمته وإحسانه وبره ولطفه وعدله وثوابه وعقابه .

فمن ذلك التفكر فى خلق الإنسان فى قوله تعالى :

« ومِنْ ءَايٰتِهِ أَنْ خَلَقَكُم من تُرابٍ ثم إذا أنتم بَشَرٌ تَنْتَشِرونَ * ». وقوله : «وفى أَنْفُسِكُم أفلا تُبْصِرون». وقوله : «ولقد خَلَقنَا الإنسٰنَ مِنْ سُلٰلَةٍ من طِينٍ * ثم جَعَلْنٰهُ نُطْفَةً فى قَرارٍ مَّكِينٍ * ثم خلقنا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ،

فخلقنا العَلَقَةَ مُضْغَةً ، فخلقنا المُضْغَةَ عِظَامًا ، فكَسَوْنَا العِظَامَ لحمًا ، ثم أنشأنه خَلقًا ءاخرَ ، فتبارَكَ اللهُ أحسَنُ الخالِقِينَ » .

ومنه التفكر فى خلق الأرض فى قوله تعالى : « وترى الأرض هامدَةً فإذا أنزلْنَا علَيْها الماءَ اهتَزَّتْ وربَتْ وأنبَتَتْ من كل زَوْجٍ بَهِيجٍ » . وفى قوله جل شأنه : « والأرضَ بعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أخرجَ مِنها ماءَها ومَرْعَاهَا * والجبالَ أرْسَاهَا * مَتَاعًا لَكُمْ ولأَنْعامِكُمْ » .

ومنه التفكر فى السماء فى قوله تعالى: «ولقد زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بمَصَابِيحَ»

ومن الحض على التفكر فى السماء والأرض معاً قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فَوقَهُمْ كيفَ بنَيناهَا وَزَيَّنَّاهَا وما لهَا من فُروجٍ * والأرضَ مَدَدْنَاهَا وألْقَينا فيها رَوَاسيَ وأنبَتْنَا فيها من كل زَوجٍ بهيج * تَبصِرةً وذِكرَى لكل عَبْدٍ مُنيبٍ * » .

ومن الحث على التفكر فى السحاب قوله تعالى : « وَمِن ءايَتِه يُرِيكُمُ البَرْقَ خوْفاً وطَمعاً وَيُنَزِّلُ من السَّماءِ ماءً فَيُحْيِي به الأرضَ بعد موْتِها، إنَّ فى ذَلِكَ لأَيتٍ لقومٍ يَعقِلُونَ» ومنه فى الهواء قوله تعالى: « وفى عادٍ إذْ أرْسلْنَا عليهمُ الريحَ العقيم * ما تَذَرُ من شَيْءٍ أتتْ عليه إلا جَعَلَتْهُ كالرَّميم *» . وقوله : « إنا أرسلنا عليهم ريحاً صَرصَرًا فى يوم نَحْسٍ مُستَمِرٍّ » وقوله فى تسخير الهواء لخير العباد : « الله الذى يُرسِلُ الرِّيَاحَ فتُثِيرُ سحاباً فيَبْسُطُهُ فى السماءِ كيف يشاء » . وقوله : « وأرسلنا الرِّيَاحَ لَواقِحَ » .

ومنه فى الماء قوله تعالى: « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ».وقوله: « وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً

تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

ومن الحض على التفكر فى الحيوان قوله تعالى : « وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ » . وقوله جل شأنه : « وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِى مِنْ كُلِّ الثَّمَرَٰتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ » .

ومن الحض على التفكر فى الكون أجمع قوله تعالى : « وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وما ذَرَأَ لَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُ . إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ » . وقوله تعالى : « أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ * فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ » وقوله : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ الَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَٰطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِىُّ الْكَبِيرُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » . وقال تعالى : « سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » .

فالذى يمر بهذه الآيات الظاهرة فى السماء والأرض ولا يفطن لأسرارها

ولا يأبه لنظامها لا يمكن أن يكون إنساناً حقاً بل يكون ممن ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة فهم لا يبصرون ولا يعقلون؛ لأنهم عطّلوا عقولهم وظلوا جامدين لا يفكرون ولا يتدبرون « وكأيِّنْ من ءايَةٍ فى السَّمَوٰاتِ والأرضِ يمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ » . وقد ذمهم الله بقوله : « أفلا يَتَدَبَّرُونَ القرءانَ أَمْ عَلَى قُلوبٍ أَقْفَالُهَا » .

ومدح القرآن المفكرين وعد التفكر فيما أبدع الحكيم القدير ضرباً من ضروب العبادات بقوله تعالى :

« ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَٰماً وَقُعوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرون فى خَلْقِ السَّمَوٰاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلاً »

وإن استعمال العقل فى البحث عن أحوال الكائنات ودقةِ خلقها ، والتغلغلِ فى معرفة حقيقتها وطبيعتها ونظامها وأسرارها لَيُؤدى إلى توسيع الأفق العقلى وزيادة الخشية والرهبة من الله ؛ فإن العلوم على اختلاف أنواعها تقوى فكرة وجود الإله الأعظم المعبود بحق ؛ لأنها تكشف الغِطاء عن أسرار هذا الكون العجيب : فعلم الفلك مثلا يوضح لنا ما فى القبة السماوية من كواكب ونجوم وأقمار وما بينها من الترابط والعلاقات « وكُلٌّ فى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » وهذا التفكير يؤدى إلى تمجيد الله والاعتراف بقدرته وأنه متصف بما دل عليه بديع صنعه من الصفات العالية كالعلم والقدرة والإرادة ، وأنه لا يشبه شيئاً من خلقه ، وأن لا نسبة بينه وبينهم إلا أنه موجدهم وأنهم إليه راجعون . فتلك الآثار أدلة ناطقة على أن العالم مخلوق ، خلقه مبدعٌ حكيم قدير عليم قـدّره أحسن تقدير ، ونظمه أجل نظام .

(ب) أدب الانسان مع المجتمع

الإنسان مدنى بطبيعته أى مضطر إلى حياة الاختلاط والعشرة بدافع الغرائز والميول ، ولا يمكن أن يكتفى بنفسه فى تكميل ذاته ، بل لا بد له من معاونة الكثيرين ؛ لتتم سعادته الإنسانية . وهو مدنى بالضرورة : تدفعه عوامل الحاجة إلى الحياة الاجتماعية ؛ إذ يستحيل عليه أن يَسْتَقِلَّ بجميع حاجاته ، ويقوم وحده بكل ما تتطلبه معيشته .

فالصلة بين الفرد والمجتمع وثيقة ، وكل منهما يؤثر فى الآخر تأثيراً واضحاً ، فالعضو إذا اعتل يؤثر فى الجسم ، والجسم إذا ضعف يسرى ضعفه إلى الأعضاء ، وهذا هو الشأن بين الفرد والمجتمع : فقوةُ أحدهما وسعادته قوة وسعادة للآخر ، وضعفه وشقاؤه ضعف للآخر وشقاء ، وكل مجتمع صغر أو كبُر تتجلى فيه تلك العلاقة : علاقة الجزء بالكل والكل بالجزء .

والمجتمع يشبه جسم الإنسان الذى يتألف من أعضاء يقوم كل منها بوظيفته التى قُدِّرت له . وتنقسم الأعضاء فيه طوائفَ وجماعات . وذلك شأن المجتمع والأفراد ؛ فكل فرد فى العالم ككل عضو فى الجسم : وظيفته أن يعاون غيره ويعمل معه لحفظ كيان المجتمع .

وإن الفرد المنعزل كل الانعزال عن الجماعة لا يكاد يُتَصَوَّر ؛ فماذا يكون نصيب العضو إذا انفصل من الجسم ؟ والغصن إذا اقتطع من الشجرة ؟ هل يكون له من نصيبٍ غير الفناء العاجل ؟ على أن قيمة الإنسان إنما تكون فى صلته بالجماعة ؛ فأعماله وأغراضه وعاداته وأخلاقه

وملكاته وعواطفه وعلمه ومعتقداته لايقوّمها إلّا المجتمع : فهو هبة من هباته ، ولا قوام له بدونه . وهل كانت الفضائل فضائل والرذائل رذائل إلا لأن الإنسان يعيش بين ظهرانى المجتمع؟

فالزهاد الذين يحاولون التفرد عن الناس والعزلة عن العالم فيأوُون إلى الكهوف فى الجبال ، و إلى الصوامع فى الفيافى ـ هم فى الحقيقة يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، و يجردون أنفسهم من حياة المجتمع . يقول ابن مِسكويه (وكيف يعف و يعدل و يسخو و يشجع من فارق الناس وتفرد عنهم وعدم الفضائل الخلقية ؟ وهل هو إلا بمنزلة الجماد والميت؟) . فهذا اللون من الحياة الفردية مذموم ومخالف للطبيعة الإنسانية ، وقوانين العمران؛ لأن الإنسان مضطر إلى الاجتماع بأبناء جنسه لحاجته إليهم فى قضاء مآربه ومآربهم . قال الشاعر :

النـاسُ للنّاسِ من بدوٍ وحاضرةٍ بعضٌ لبعضٍ و إن لم يَشْعُرُوا خدم

ويقول ابن مِسكويه (لما كانت الخيرات الإنسانية وملكاتها التى فى النفوس كثيرة، ولم يكن فى طاقة الإنسان الواحد القيام بجميعها، وجب أن يقوم بها جماعة كثيرة منهم يتوزعونها حتى يقوم كل واحد بجزء منها، و يتم للجميع بمعاونة الجميع الكمال الإنسانى ، وتحصل لهم السعادات . فيكون إذن كل واحد بمنزلة عضو من أعضاء البدن . وقوام الإنسان بتمام أعضاء بدنه)

و إن الناظر فى الدين الإسلامى قرآنه وسنته وآدابه يجده موثِّقاً للعلاقة بين الفرد والمجتمع ، ومنظماً لصلات المسلمين بعضهم مع بعض ، كما يجده شرعاً حكيما : شمل بنظراته الفرد والمجموع، و بيّن ما لكل من حقوق وما عليه من واجبات .

فقد حثت الشريعة الغراء على الألفة والتعاون لما فيهما من سعادة وقوة للفرد والمجتمع ، ونفَّرت من العزلة والتنازع ، فقال جل شأنه : (وَٱعْتَصِمُوا بِحبلِ اللهِ جَمِيعاً ولا تَفَرَّقُوا) وقال : (ولا تَنَزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) وقال عليه الصلاة والسلام : « المؤمنُ للمؤمن كالبُنْيَانِ يَشُدُّ بعضُه بعضاً » وقال : « لا تقاطعُوا ولا تَدابَرُوا ولا تحاسَدوا وكونُوا عباد الله إخواناً » وقال : « لا يَحِلُّ لمسلم أن يَهْجُرَ أخاه فوق ثَلَاثٍ »

فهناك من ضروب التشريع ما يدل على شدة حرص الدين الإسلامى على بقاء الكتلة الإسلامية سليمة منيعة، وعلى التوثيق بين عناصرها توثيقاً شديداً ؛ فالآداب الدينية تدعو إلى الوحدة الاجتماعية بالقول والعمل . وقد شرع الدين وجوب صلة الرحم، والعطف على الضعفاء ، والعمل لكل ما يؤدى إلى تواد المسلمين وتوثيق الروابط بينهم كما سيأتى شرحه .

١ — حسن المعاملة

الدين الإسلامى دين سمح سهل : يأمر بخفض الجناح ولين الجانب ، فقد أوجب على الفرد أن يعامل الناس برفق ولين ، وألاَّ يخاطب أحداً بغلظة ، وألا يتكبر أو يتعاظم على أحد منهم، بل يستجلب محبتهم بمكارم أخلاقه، وحسن معاملته، ولطف صنيعه، وألا يكثر المراء والخصومة معهم ، وأن يبتدئ من يعرف ومن لا يعرف بالتحية ، وإذا حياه بتحية ردها بمثلها أو بأحسن منها ، وأن يلقى غيره بالبشاشة والبشر وطيب الكلام، ولا يؤذيهم بقول أو فعل ، وأن يعفو عن مذنبهم ، ويصفح عن تائبهم ، ويتودَّد إليهم بكل وسائل التودد ، وألا يعد أحداً منهم بوعد إلا وَفَى به .

إلى غير ذلك من الأخلاق الفاضلة والصفات الكاملة .

وقد جاء القرآن الكريم مبيناً هذه الآداب على أحسن وجه وأكمله ، مرشداً إلى ما يجب التخلق به وما يجب اتخاذه فى معاملة أفراد المجتمع : من كل مايجلب رضاهم ومحبتهم ، حتى تتحد كلمتهم ، وتتألف جامعتهم ، ويسعوا فيما يجلب لهم الخير ، ويدفع عنهم الشر والضير . فمن ذلك ما حثّ الله سبحانه عليه من مقابلة الإساءة بالإحسان، والذنب بالغفران ، والغضب بالحلم ، والغيظ بالكظم ، مع بيان الثمرة المترتبة على ذلك ، فقال :

« ولا تَسْتَوِى الحسنةُ ولا السَّيِّئَةُ . ادفع بالتى هى أحسنُ فإذا الذى بينك وبينه عَداوةٌ كأنّه وَلِىٌّ حَمِيم * وما يُلقّاها إلا الذين صَبَرُوا ، وما يُلقّاهَا إلا ذو حَظٍّ عظيم » .

وإن من يعمل بهذه الوصية فيعفو عن الهفوات، ويتجاوز عن الغلطات، ويحسن إلى من أساء إليه — لهو من الصابرين القانتين ذوى العزائم القوية ، والقلوب الثابتة . وقال العليم الحكيم يعلّم نبيه صلى الله عليه وسلم محاسن الأدب ومكارم الأخلاق وحسنَ المعاملة مع صنوف الخلق سواء المطيع منهم والعاصى : « واخفِضْ جناحَك لمن اتّبَعَكَ من المؤمنين * فإنْ عَصَوكَ فَقُلْ إنى برىء مما تعملون » فأمره أن يلين جانبه ويتواضع للمؤمنين ؛ لأن ذلك أدعى إلى اجتماع كلمتهم عليه ومحبتهم له ، وقيامهم بكل ما يرضيه ، وبذلهم النفس والنفيس فى سبيل نشر دينه ، وسعيهم فى إعلاء كلمته ، ونصرته علي أعدائه .

وهذا ضرب من التدبيرات الإلهية ، والسياسات الشرعية ، التى تجب على كل من قام بالدعوة ليرشد الناس ويهديهم إلى ما فيه صلاح حالهم

فى الدنيا والآخرة ، ويقوِّم ما اعوج من أخلاقهم ويجمل المعاملة ويحسن الصنيعة لمن خالفوه ، لما فى ذلك من محبتهم له ، وعدم نفورهم منه . وربما كان ذلك سبباً فى رجوعهم عن معصيته ومخالفته إلى طاعته وامتثال أمره .

وقال جل ذكره فيما يجب أن يقابل الإنسان به خصمه من حسن المعاملة والملاطفة واللين حتى يكون ذلك سبباً فى قبولهِ قولَه وإجابته طلبه، مخاطباً بذلك موسى وأخاه هرون عليهما السلام عند ما أمرهما أن يذهبا إلى فرعون ليدعواه إلي عبادة الله تعالى :

« اُذْهَبْ أَنْتَ وأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى ولا تَنِيَا فى ذِكْرِى * اُذْهَبَا إلى فِرْعونَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أو يَخْشَى »

فان الله أمرهما أن يذهبا إلى فرعون وأرشدهما إلى ما يقولان له من القولِ اللين لعله يكون سبباً فى إذعانه لهما ، وقبوله دعوتهما .

هذا ما أمر الله به نبيه موسى وأخاه هرون من حسن معاملة فرعون واللين له فى القول والتلطف به . وهما صفوة الله من خلقه إذ ذاك . وفرعون أحط قدراً عند الله تعالى . فكيف بمعاملة المؤمنين بعضهم لبعض ؟ إنهم لأَوْلى باستعمال الملاطفة وخفض الجانب .

ويتضمن حسن المعاملة أموراً كثيرة منها :

أولاً — الوفاء بالعهد وهو بالنسبة لله عز وجل امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه . وبالنسبة للخلق ألاَّ يَعِدَ أحدهم وعداً إلا وفى به وأنجزه حتى ، لا يكون كالمنافق إذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر ، وإذا حدّث كذب ، وإذا اؤتمن خان .

ثانياً — صلة ما أمر الله به أن يُوصَل ونَهى عنه أن يقطع : ومن

ذلك وصل قرابة المؤمنين لقوله تعالى : « إنمــا المؤمنون إخوة » ويكون بالاحسان إليهم، على قدر الطاقة ، ونصرتهم والذّب عنهم، والشفقة عليهم وجلب الخير إليهم ودفع الشر عنهم ، وعيــادة المرضى . ومنه مراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرفقاء فى السفر والحضر إلى غير ذلك . ومنه صلة ذوى الرحم : بأن يطعمهم من جوع ، ويؤْمِنَهم من خوف ، أو يقْضِي عنهم دَيْناً ، أو يفرج عنهم غَمّاً ، أو يمدهم بما يحتاجون إليه إن كانوا فقراء ، و يعاملهم بالتودّد ، و يتعهدهم بالزيارة .

ثالثاً : — درء السيئة بالحسنة ، أى دفعها بها ، فان أوذى أحد قابل ذلك بالصبر والاحتمال والصفح والعفو ، و إن بدرت هفوة من إخوانه أغضى عما حصل منهم ، وتجاوز عما فَرَط .

ولهؤلاء الذين يحســنون المعاملة منزلة كبيرة ومثو بة عظيمة عنــد الله تعالي ، إذ وعد بذلك فى قوله جل شأنه :

« أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا » .

أما الذين لا يحسنون المعاملة فهم الأشـقياء الذين أوعدهم الله تعـالى بالعذاب الأليم فى قوله :

« والَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَٰقِهِ ، و يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أن يُوصَلَ ، و يفْسِدُونَ فى الأَرْضِ ، أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ »

وقال تعالى يعلّم رسوله صلى الله عليه وسلم لطفَ المعـاملة وحسن رِعاية اليتامى الأذلاء، والفقراءِ الضعفاء ، ولنا فيه صلى الله عليه وسلم الأسوةُ الحسنة « فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَما السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ »

فبيّن جل شأنه وجوب حسن معاملة هذين الصنفين : اليتيمِ الذى مات أبوه وهو صغير ، والسائلِ الذى ألجأته الحاجة والفاقة ، إلى ذل السؤال ، وتَكَففِ الناس . فحسن معاملة اليتيم ألّا يقهرَهُ ولا يغضبه ، ولا يأخذ منه حقاً هو له ، وأن يكون له كالأب الرحيم للابن البار ، ولا يفعل معه ما يكدر خاطره ، أو يحصل منه ضرر له . وحسن معاملة السائل يكون إما بإجابة سُؤْله مع عدم التكبر والتجبُّر والفحش فى القول ، وإمّا بردّه برحمة ولين وتعطف وتلطف. ولا يصح أن يقابَل السائل المحتاج من المسئول بالفظاظة والغلظة والكبر : فان فى ذلك من قلة المروءة وخِسَّةِ الطبع ما لا يخفى .

وقال جل ذكره يحث على معاملة الناس بالعفو عن مذنبهم والصفح عن تائبهم : « ولا يَأْتَلِ أُولُوا الفَضْلِ مِنْكُمْ والسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِى القُرْبَى والمَسَٰكِينَ والمُهَٰجِرِينَ فى سَبِيلِ اللهِ ، وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ، أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ واللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » .

أى لا يقصر أولو الفضل والغنى فى معونة ذوى الحاجة من الأقارب والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ، وليصفحوا ويتجاوزوا عما يكون منهم من جفاء أو إساءة ، فإن الله يحب من عبده أن يصفح عن زلات الناس ويغفر سيئاتهم ، وقد جعل جزاء ذلك غُفرانَه ورحمته وهو الغفور الرحيم .

٢ — صِلة الرَّحِم

رحم الإنسان أقاربه ، وهم أكثرُ الناسِ بعد الوالدين مساعدةً له ، وأقواهم رغبةً فى إسداء الخير إليه ، وأشدُّهم شفقةً عليه . ولهم عليه حقوق لابد من أدائها عملا بقوله تعالى : (وَءَاتِ ذَا القُرْبَى حَقَّهُ) .

وصلة الرحم أن يتفقد أحوالهم ، فيساعد فقيرهم ، ويعين ضعيفهم ، ويشاركهم فى أفراحهم وأحزانهم ، وينفعهم بعلمِهِ وقوَّتِهِ وجاهه ، ويعود مريضَهم ، ويتودَّد إليهم بالزيارة ، ويلقاهم بالبشاشة ، ويحافظ على أموالهم وأعراضهم ، ويعمل كل ما يجلب الخير لهم ، ويدفع الضير عنهم ، فإذا فعل ذلك أخلصوا فى محبته وكانوا له أنصاراً ومساعدين ، وزال التباغض والتحاسد ، وصفَت الضمائر ، وحسنت السرائر .

وقد حث الدين على صلة الرحم وأكثر من الأمر بها والنهى عن قطعها ، فمن ذلك قوله تعالى :

(يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الذى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَها ، وبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِساءً، واتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءلُون بِهِ والأَرْحَامَ ، إِنَّ اللهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً) .

فأمر جل شأنه فى هذه الآيةِ بتقواه وعبادتهِ عبادةً خالصة وَبِصِلةِ الرحم وبرِّها . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (مَن سَرَّهُ أن يُبْسَطَ لَه فى رِزْقِهِ وأن يُنْسَأَ له فى أثَرِه فَلْيَصِلْ رَحِمَه)

أى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جَعَل صِلةَ الرَّحِمِ وسيلة إلى سَعَة الرزق وطول العمر . إذ بالصلة يستجلب محبتهم ومودتهم ، فيعاونونه على كسب الثروة فتزْدَاد . وبالصلة يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حسنا فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ، وبها يكتسب الثناء عليه والدعاء له لقيامه بواجب القَرابة ، وتكون حياته حافلة بالأعمال الصالحة وذكراه طيبةً خالدة ، فيَزيده الله خيراً وبركة ، وفضلا ونعمة ، ويدخل فى زمرة المتَّقين .

(وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِن حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) .

وقد جعل الأقرباءَ أَوْلَى من غيرهم بالصلة والمودة فقال تعالى :

(وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ) .

كما أعد الله الجنة لمن يصل الرحم فقال تعالى :

(الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ، وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ . . . .

إلى أن قال : أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ) .

وجعل من قطع رحمه مخذولاً مطروداً لاينال إلاّ سوء المقت والازدراء والخسران المبين والعذاب الأليم . فقال تعالى :

(وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ، أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ) .

وإن البخل بالنعمة على ذوى الرحم لَأَشَدُّ إثماً وأعظم جُرماً من البخل على غيرهم من سائر الناس . قال الشاعر :

ومن يك ذا فضل فيبْخَلْ بفضلِه   على قومه يُسْتَغْنَ عنه ويُذْمَمِ

وقد سأل معاويةُ عمرَ بنَ الخطاب رضى الله عنهما عن المروءة فقال : « هى تقوى الله وصلةُ الرحم » . وقال بعض الحكماء : (من وصل رحمه وصله الله وَرَحِمَه ، ومن قطعَها قطعَه الله وحرمَه) .

٣ — احتمال هفوات الاخوان

إن العفو عن السيئات ، والتجاوز عن العثرات ، وإسداء الإحسان وفعل الخيرات ، كل ذلك من مكارم الأخلاق ، وأعظم القربات . وقد

نطق بذلك القرآن الكريم فى كثير من الآيات ، وصرحت به السنة النبوية . قال الله عز وجل :

« وأن تَعفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » . وقال تعالى : « فَبِما رَحْمَةٍ من اللهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُم واسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فى الأَمْرِ » .

وقال تعالى : « فمن عَفَا وأَصلحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ » .

ونقل أبو هريرة أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مجلس ، فجاء رجل فوقع فى أبى بكر رضى الله عنه وهو ساكت — والنبى صلى الله عليه وسلم يبتسم — ثم رد عليه أبو بكر رضى الله عنه بعضَ الذى قال ، فغضب النبى صلى الله عليه وسلم ثم قام ، فلحقه أبو بكر رضى الله عنه فقال : يا رسول الله ، شتمنى وأنت تتبسم ثم رَدَدْتُ عليه بعض الذى قال فغضبتَ وقمت — فقال صلى الله عليه وسلم : (حين كان ساكتا كان ملَكٌ يرد عليه ، فلما تكلمتَ وقع الشيطان ؛ ولم أكن لأقعد فى مقعد فيه الشيطان . يا أبا بكر ، ثلاثةٌ حق : أنه ليس عبد يُظلم بمَظْلَمَة فيعفو عنها إلا أعزه الله ونصره ، وليس عبد يفتح باب مسألة يريد كثرةً إلا زاده الله قِلة ، وليس عبد يفتح باب عطية أو صلة إلا زاده الله بها كثرة) وروى عنه صلى الله عليه وسلم : « أفضل العبادة أن تصلَ مَنْ قطعَك ، وتُعطى من حرَمك ، وتعفوَ عمَّنْ ظَلَمكَ » . فالواجب على العاقل أن يأخذ نفسه بالعفو عن الناس كافة ، ومجازاة الإساءة بالإحسان ، إذ لا سبيل لتسكين الاساءة أسلم من الاحسان ، وإن مقابلتها بمثلها مَدعاة لتفاقم الشر وزيادة الخَطب .

وسُمع الفضل بن عِياض يقول : احتمل لأخيك إلى سبعين زلة . قيل له : وكيف ذلك يا أبا على ؟ قال : لأن الأخ الذى آخيته فى الله ليس يزِلُّ سبعين زلة. وقيل: أقبل الشعبى يوما فإذا هو برجلين من قومه من وراء جدار قصير ، فاستمع عليهما فإذا هما يقعان فيه ويشتمانه ويستنقصانه حتى أكثرا — فلما أطالا أشرف عليهما الشعبى فقال :

هنيئا مريئا غيرَ داءٍ مُخَامِرٍ * لعزّةَ من أعراضنا ما اسْتَحَلَّتِ

فقالا : والله ياأبا عمرو : لا نقع فيك بعد اليوم . وقال لقمان لابنه : كذب من قال : إن الشر يُطفئُ الشرَّ ، فإن كان صادقا فليوقد نارا إلى جنب نار فلينظر هل تطفئُ إحداهما الأخرى ، وإلّا فإن الخير يطفئُ الشر كما يطفئُ الماءُ النارَ. وقال الشاعر :

لَمّا عفوتُ ولم أحْقِدْ على أحدٍ أَرَحت قلبيَ من غَمِّ العَداواتِ
إنى أُحَيِّ عدوِّى عند رُؤيتهِ لأَدْفَعَ الشرَّ عَنِّى بالتَّحِيَّاتِ
وأُظهرُ البِشْرَ للإنسانِ أُبغِضُه كأنما قد حَشَا قلبي مَحبَّاتِ

ومن رائع الأمثلة في احتمال الهفوات ومقابلة الاساءة بالاحسان ، أنه لما فعل المشركون بالنبى صلى الله عليه وسلم ما فعلوا يوم أُحُد وطُلب منه أن يدعوَ عليهم ، قال : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون ». وحسبك فى هذا الباب ما فعله مع مشركى قريش الذين آذَوه واستهزءوا به وأخرجوه وأصحابه من ديارهم ، ثم قاتلوه وحرضوا عليه غيرهم من مشركى العرب حتى تمالأ عليه جمعهم . فإنه لما فتح الله عليه مكة لم يزد على أن عفا وصفح وقال : ما تقولون أنّى فاعل بكم ؟ قالوا خيراً ، أخٌ كريم وابنُ أخ كريم ، فقال : اذهبوا فأنتم الطُّلَقَاء .

مما تقدم يعلم أن من مكارم الأخلاق أن يلين المرء إذا استُعْطِفَ ، وأن يؤثر إخوانه على نفسه ، ويتحمل هفواتهم ، ولا يقطع صلته بهم لما يبدو منهم من أخطاء ، ولا يجفو فى الوداد ، ولا يؤذى الإخوان ، بل يؤمّن من يخاف ، ويعفو عمن أذنب ، ويصل من قطع ، والعفو أقرب للتقوى .

٤ — مداراة أهل الشر .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مداراة الناس صدقة »
وقال بعض الحكماء : من الكياسة التزام المداراة من غير مقارفة المداهنة ، إذ المداراة كمال والمداهنة نقص ؛ لأنها ضرب من النفاق والرياء .

وقال صالح بن عبد القدوس :

تجنَّبْ صديق السوء واصرِمْ حِبالَه ... وإن لم تجِد عنه مَحيصاً فدَارِه

وقال ابن الحنفية . ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدًّا حتى يأتيَه الله منه بالفرج أو المَخرج ، ذلك لأن الشخص إذا اضطرته حالته ومعيشته أن يعاشر بعض أناس امتزجت نفوسهم بالشر وأُغْرِمَتْ بحب الايذاء فعليه أن يغض الطرف عما يبدر منهم من سقطات ، وأن يداريهم بحزم وكياسة حتى يقلل ذلك من شرهم ، أو يجعلهم يحيدون عن خطتهم الشائكة ، وطريقتهم المؤلمة ، أو يأذن الله له بالبعد عنهم سالماً من أذاهم ، بعيداً عن شرهم . ولا يقدر على ذلك إلا اللبق الأريب . وقال بعض الفلاسفة : من جرى فى معاشرته الناس على إلزامهم نَهْجَه ومذاهبه كدّر على نفسه عيشه ، ولم تصف مودتُه ؛ لأن وداد الناس لا يستجلب إلا بمساعدتهم على ما هم عليه ، إلا أن يكون مأثماً ، فان كان فلا سمع ولا

طاعة . والناسُ قد ركبت فيهم أهواء مختلفة ، وطبائع متباينة ، فكما يشق عليك ترك ما جُبلت عليه يشق على غيرك مجانبة مثله ؛ فليس إلى صفو ودادهم سبيل إلا بمعاشرتهم حيث هم ، والاغضاء عن مخالفتهم فيما ليست فيه معصية . وقال بعض الحكماء : من التمس رضا جميع الناس التمس ما لا يُدرَك ، وما أكثر من دارَى فلم يَسلَمْ ، فكيف تتم السلامة لمن لا يدارى ؟ فمن لم يعاشر الناس على لزوم الاغضاء عما يأتون من المكروه وتركِ التوقُّعِ لمَا يأتون من المحبوب كان إلى تكدير عيشه أقربَ منه إلى صفائه ، وإلى أن يدفعه الوقت إلى العداوة والبغضاء أقرب منه إلى أن ينال منهم الوداد وترك الشحناء — والعاقل إذا دُفِعَ إلى صحبةِ من لا يثق بصداقته، أو صداقة من لا يثق بأُخُوّته ، فرأى من أحدهما زلة فرفضه لزلته، بقى وحيداً لا يجد من يعاشر ، فريداً لا يجد من يخادن .

قال بشار :

إذا أنت لم تَشْرَب مِراراً على القذى ظَمِئْتَ ، وأيُّ الناسِ تَصْفُو مشاربُهُ

وعن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن شرَّ الناس عند الله منزلةً يومَ القيامة من تَرَكه — أو وَدَعَهُ — الناس اتقاءَ شرّه »

ففى هذا الحديث بيَّن الرسول صلى الله عليه وسلم أن شر الناس منزلة يوم القيامة من تركه الناس ، لا لأنه لا خير فيه ، ولا منفعة ترجَى من ورائه، بل اتقاء شره ، وحذرًا من ضره وبغيه، فهم لا يؤمنون— إذا كاشفوه بحاله ، أو نصحوه ليرعوى عن ظلمه ، أو جالسوه وخالطوه ، أو قابلوا سيئته بالسيئة — أن يرميهم بالمقْذعات ، ويدبر لهم المكيدات التى تضرهم فى نفوسهم أو أعراضهم أو أموالهم أو مناصبهم ، فهو أفاك أثيم ، لا يتحامى

منكراً ولا يجافى مأثماً ، أوهو دَنٌّ من القاذورات ، إن اقتربت منه هبّت عليك رائحته الخبيثة ، ولوثتك نجاسته الغليظة ، فالسلامة منه فى مجانبته أو متاركته ومسالمته . فهذا أسوأ الناس منزلة يوم القيامة ؛ لأنه وباء على المجتمع ، وهل منزلته السيئة إلا جهنم يَصْلَى سعيرَها ، ويُعَانِى لهيبَها ويشرب من حميمها، ويَطْعَمُ من زَقُّومها ، ويتسربل من قطرانها. ومثل هذا ليس من الإسلام فى شيء ؛ فان المسلم من سلم الناس من لسانه ويده ؛ وهو ليس من الإيمان فى قليل ولا كثير ؛ فان المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم. فان كان يحمل لقب الاسلام أو الايمان فهو لقب مكذوب ونعت مدخول.

والمسلم الحق هو الذى يكون حِبًّا للمسلمين لا ضداً ، وسِلماً لهم لا حرباً ، وخير الناس أنفعهم للناس .

٥ — اجتناب اللمز والتنابز بالألقاب وسوء الظن والتجسس والغيبة

أمرنا الله باحترام غيرنا والمحافظة على سمعته وكرامته وشعوره ، وأن نعرف أقدار الناس ونكف عن أذاهم بأى نوع من أنواع الأذى قولا وعملا . فنهانا الله عن السخرية وحضنا على احترام سوانا فى قوله تعالى :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ ، وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ »

فإن السخرية معناها الاستهانة بالمرء واحتقاره ، والتنبيه على عيوبه ونقائصه بحالة تشف عن الاستهزاء والتهكم ، وهى محرمة شرعاً . وقد قبح الله السخرية بالناس ولمزهم والتنابز بالألقاب وسوء الظن فقال تعالى :

« ولا تَلْمِزُوا أنفُسَكم ولا تَنَابَزُوا بالألقٰبِ ، بئس الإِسْمُ الفُسُوقُ

بَعْدَ الْإِيمَٰنِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ * يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ ، إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُوا ، وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ » .

فى هاتين الآيتين أرشد الله جلت حكمته إلى الصفات الحسنة والأخلاق الكريمة : وهى ألايسخر أحد من أحد ويستخفَّ به ويستحقره ، وألا يعيب أحداً بشىء يكرهه ، وألا يسىء ظنه بأحد من إخوانه ، وألا يبحث عن عورات الناس ومعايبهم ويستكشف عما ستروه ، وألا يذكر أحد أخاه بما يؤلمه فى غيبته ، فإن ذلك كلَّه مما نهى الله عنه ورغّب فى التباعد منه . ولا ينبغى أن يستهزئ أحد من أحد سواء أكان من الرجال أم من النساء ؛ لأنه ربما كان المسخور منه خيراً عند الله من الساخر. لذلك لاينبغى أن يجترئ المرء على السخرية بغيره ، والاستخفاف به لمجرد أنه رآه رث الهيئة أو فقيراً أو ذا عاهة فى بدنه ، أو غير لَبِقٍ فى محادثته أو نحو ذلك . فلعله أخلَصُ ضميراً وأنقى قلباً ممن هو على ضد صفته .

والسخرية إنما تحرم إذا كانت فى حق من يتأذى بها . أما من جعل نفسه سُخَرة وربما فرح بالسخرية به كما يفعله السِّفْلَة من الناس — فإن السخرية عنده من جملة المزح وليس ذلك بمحرم فى حقه . وإنما المحرم استصغارٌ يتأذى به المستهزأ به على أية صورة جاء من قول أو فعل أو إشارة .

ونهى الله عن أن يعيب أحدٌ غيره بقوله : « وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ » أى لا يَعِبْ بعضكم بعضاً ؛ لأن الناس كنفسٍ واحدة ، فمتى عاب الإنسان

أخاه فكأنما عاب نفسه ، وهذا أدب كبير أدب الله به عباده ، وبه تكون أُلفتهم واتحادهم ، وارتباطُ قلوبهم بعظيم المودة ووثيق المحبة . ونهى عن أن يذكر المرء أخاه بلقب يعيبه ؛ لأنه يزرع فى القلوب الضغينة ، ويمكن فيها الحفيظة ، وهو مما جاء الشرع الشريف بالنهى عنه ، إذ يقول الله تعالى « وَلاَ تَنَابَزُوا بالألقَبِ » وقد سمى جل شأنه التنابز بالألقاب الذى هو داعية الحقد والبغض فسقاً فى قوله « بِئْسَ ٱلِاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ ٱلإِيمَٰنِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ » فمعنى التنابز التعاير .

ونهى الشرع عن سوء الظن بأحد من الناس فى قوله تعالى : « يَاأَيُّهَا الذينَ ءامَنُوا ٱجْتَنِبُوا كثيراً مِنَ الظَّنِّ إنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إثْمٌ » أى يأيها الذين آمنوا تباعدوا عن كثير من الظن وهو مجرد التهمة التى لا سبب لها ولا دليل عليها ، كأن تتهم غيرك بشىء من الفواحش ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك ؛ لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً ، فليُجتَنَب الكثيرُ منه احتياطاً . ويشترط فى حرمة هذا أن يكون المظنون به ممن شوهد منهم التستر والصلاح والأمانة أما من يتعاطى الريبة والمجاهرة بالخبائث والمنكرات كالدخول والخروج فى حانات الخمور وصحبة الغوانى الفاجرات فلا يحرم سوء الظن به فى نحو ما يظهر منه فقط .

وقد أنكر الشرع على الإنسان البحثَ عن عيوب الناس وعوراتهم بقوله « ولا تجسسوا » أى لا تبحثوا عن عورات الناس ولا تستكشفوا عما ستروه ؛ فان فى ذلك فضيحةً له وتعرضاً لما لا يعنى ولا يفيد . وهب أن ذلك الباحث اطلع على جميع عورات أخيه ومعايبه فأى فائدة تعود عليه من ذلك سوى أنه كالذباب يتتبع القاذورات والمواضعَ الفاسدةَ من الجسد

وغيره . ونهى عن أن يذكر أحد أخاه بما يكره فى غيبته . وإذا لم يكن فيه شيء مما اغتيب سمّى القولُ افتراء وبهتاناً ، وكان الإثم أشد وأعظم من الغيبة . وبشاعةُ ذلك كله ، واستنكار أمره ، ومبلغ ضرره فى تأريث نار الفتن وتقطيع روابط الألفة بين الناس — أمر مستفيض لا يحتاج إلى بيان .

وقد نهى الشرع عن الغِيبة وحض على تجنبها . فقال تعالى : « ولا يَغْتَبْ بَعْضُكم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكم أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوه » أى لايذكر بعضكم أحداً بما يكره سواء أكان ذلك باللسان أم بالفعل ومنه الإشارة والكتابة وغيرها مما يفهم نقصانه ، سواء أكان ذلك الشيء الذى يكرهه نقصاً فى بدنه أو نسبه أو خلقه أو فى فعله أو فى قوله أو فى دينه أو فى دنياه حتى فى ثوبه وداره وماله وولده وزوجه وخادمه وغير ذلك من كل ما يتعلق به . فذلك كله مما كرهه الله تعالى وحرمه حتى جعل المغتاب كأنه يأكل لحم أخيه ميتاً ، ذلك الأمر المستبشع طبعاً وعقلا وشرعاً .

قال صلى الله عليه وسلم : « أحب الأعمال إلَيَّ حفظ اللسان . طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » .

وخليق بأهل الفضل ألاَّ يُلقوا بأنفسهم فى تيار الغيبة مع الذين يغتابون الناس . بل لتكن فيهم شجاعة أدبية يقفون منها موقف الحق والاعتدال ، بأن يكفوا المغتاب عن الغيبة أو يقوموا من المجلس . وقال صلى الله عليه وسلم : « ليردك عن الناس ما تعلم من نفسك » أى إذا أردت الطعن فى الناس ففكر أولا فى نفسك تجد فيها عيوباً ربما كانت أبشع وأسوأ مما تذكرُ عنهم ، وإذ ذاك تنزجر وتكف عن الوقيعة فيهم ، وهذه الطريقة من أنجع أدوية داء الغيبة لمن وفقه الله . ومن أقبح أنواع الغيبة هجو الناس

شعراً فان الشعر أسْيَرُ فى الناس ، وأثبت فى الأذهان ، فيكون ضرره أعم والايذاء فيه أتمّ ، وقد نهى صلى الله عليه وسلم عن هذا النوع من الغيبة خاصة فقال : « أَرْبَى الرِّبا شتمُ الأعراض ، وأشد الشتائم الهجاء ، والراوية أحد الشاتمين » وجملة القول أن الغيبة قد حظرها الاسلام لأن فيها حَطًّا من أقدار الناس ، والمغتاب لا يستحق سوى احتقار كل شريف النفس . فنهش الأعراض وثلب النفوس وما إلى ذلك تأباه روح العدالة وتحتقره الآداب وتعده من سموم النفوس الدنيئة وأقذار العقول الشريرة . وتنتهى الحال فى المغتاب إلى أن يعيش ذليلا محتقراً ، ووراء هذا كله القانون العادل الذى يشدد العقاب على القذف والطعن وثلب الأعراض . وقد يقصد المغتاب إظهار مهارته فى المجالس بمعرفة أخبار الناس ثم لا يجنى إلا احتقار من يسمعونه ، والواجب أن يشتغل بعيوبه قبل عيوب الناس ، وأن يبدأ بعداوة نفسه بدلا من الاجتهاد فى ذم غيره .

والنميمة كالغيبة فى القبح ومخالفة روح الآداب العالية . ويقصد بها غالباً الانتقام من إنسان فى شرفه وعمله إذا تعذر الانتقام منه فى ذاته ، وهذا شر أنواع الرذائل وأخبث أنواع الكذب . وكثيراً ما توجه الغيبة والنميمة لمحاربة ذوى الشرف والاستقامة والأعمال النافعة ، فان لم ير الشرير على سلوكهم غباراً وجه سهامه إلى مقاصد لهم تُؤَوَّل تأويلا ربما لم يخطر لهم على بال وليس له وجود إلا فى أدمغة النمّامين والحسدة أعداء ذوى الاستقامة والنجاح فى الأمم . وهل هناك أعجب من أن يقول قائل : إن فلاناً لم يغمر المشروعات الخيرية بكرمه وعطفه إلا رياء وطلباً للسمعة ؟

والوشاية والسعاية من شر أنواع الغيبة والنميمة ؛ لأن هذه قد تكون

لمجرد تشويه الأفعال ولحب الانتقام . أما الوشاية والسعاية فتكون بإلقاء السوء إلى من يستطيع إيذاء الْمُوشَى به و بالسعى لإحلال الضغينة والحقد محل الصداقة والصفاء . و يدخل في هذه الرذيلة من أمورنا العصرية وشاية الزملاء إلى رؤسائهم والبلاغات الكاذبة وشهادة الزور وما إلى ذلك مما قد ينتهى بظهور الحق ووقوع الأشرار فى الحفرة التى حفروها لأعدائهم الأبرياء ومحسوديهم النبلاء . ولو بحثنا عن مصدر هذه العداوة الكامنة فى الصدور ، ومنشأ تلك الضغائن التى تغمر النفوس — ما وجدنا إلا الجهل وضعف الوازع الأدبى وموت الضمير . ومن أجل هذا كان احترام الانسان فى شرفه وسمعته دالا على كال التربية وسمو النفس ، ولا شىء أدعى إلى الاحتقار من انتقاص أقدار الناس والاستهزاء بأمرهم والاستخفاف بهم ، والإنسان الذى لا يحترم غيره ليس جديرا بالاحترام مهما أوتى من العلم والثروة .

٦ — احترام البيوت وعدم دخولها إلا بإذن

من ضروب أدب الإنسان مع المجتمع احترام البيوت وعدم دخولها إلا بإذن من أهلها ، لأن الاستئذان قبل الدخول يدل على الأدب الجمّ ، و يعد الْمَزور لأن يستقبل زائريه بالحالة التى تليق به ، كما تعده لأن يهيىء المكان و يستر ما به من عورات لا يصح أن يطلع عليها الناس . على أن المسكن ما سمى مسكناً إلا ليسكن فيه الجسم و يستريح فيه العقل من نَصَب الأعمال ، فإذا ما فوجئ الشخص بزيارة أحد على غير انتظار و بدون استئذان كانت هذه المفاجأة مَدْعاة إلى اضطراب من بالمنزل وانزعاجهم .

وللمسكن حرمة يجب تقديسها فلا يجوز انتهاكها بالهجوم غَيْرِ المنتظر فى أوقات قد تكون غير ملائمة : لأن انتهاكها يؤدّى إلى غرس البغضاء فى النفوس ، وتثبيت العداوة فى القلوب ، فتأتى الزيارة بعكس ما قُصِدَت من أجله . فما جعل التزاور مشروعاً إلا لتثبيت المودة وتوثيق عرا المحبة ، وتأليف القلوب ، والتعاون على الأعمال الخيرية ، فإذا لم تراع آدابه ولم تحترم شعائره أتى بنقيض ذلك ، وكان ضِغْثاً على إِبَّالة ، ومن أجل ذلك قال الله تعالى :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا لا تَدْخُلواْ بُيُوتاً غيرَ بُيُوتِكُمْ حتى تَسْتَأْنِسُوا وتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أهلِها ذَٰلِكُمْ خيرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون * فإن لَّم تَجِدُوا فِيهاَ أَحَداً فلا تَدْخُلُوهاَ حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ ، وإنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فارْجِعُوا هُوَ أزْكَىٰ لَكُمْ . واللهُ بِمَا تَعمَلُونَ عَلِيمٌ * لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهاَ مَتَاعٌ لَّكُمْ . واللهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وماَ تَكْتُمونَ »

ويكون الاستئذان بإخبار المزور قبل موعد الزيارة لتحديد الأوان المناسب لها حتى لا تكون هناك مباغتة غير منتظرة . ومن أهم آداب الزيارة الاستئذان على نحو ما بينا لما فيه من الفوائد التى ذكرناها .

ومنها أن يختار الزائر الأوقات المناسبة ، فلا يزور أحداً فى موعد طعام أو راحة ، وأن يجعل زيارته قصيرة الأمد حتى لا يثقل على المزور أو يشغله عن شؤونه ، وألا يُكثر منها فى أوقات متقاربة ، فان ذلك أدعى إلى حبه وحسن لقائه .

إنّى كَثُرت عليه فى زيارته   فَمَلَّ ، والشىء مَملولٌ إذا كَثُرَا

ويجب على الزائر أن يستأذن فى رفق ولين فلا يحدث صياحاً ولا جلبة ، ولا يقرع الباب بشدة ، ولايدخل إذا لم يجد المزور ، ولايلح فى طلب المقابلة بل يكلف من يجده إبلاغ خبر زيارته أو يترك رقعة الزيارة .

ويجب عليه أن يبدأ المزور بالتحية عملا بآداب الإسلام فى قوله تعالى :

« فإذا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً »

كما يجب أن يترك ما معه من عصا أو مِظلة فى المكان المعد لذلك ، وألا ينظر من النوافذ أو الأبواب المشرفة على داخل المنزل فى أثناء دخوله أو خروجه أو جلوسه أو انتظاره ، ولا يعبثَ بما تصل إليه يده من أثاث وتحف ، ولايدخل غرفة لم يسمح له بالدخول فيها ، ولايبصق ولايرفع صوته بالضحك أو بكلام معيب ، ولايسأل عن أهل البيت وصحتهم إلا إذا كان له بالمزور اتصال وثيق أو قرابة ، وأن يكون نظيف الملبس منتظم الهيئة .

وإذا شعر بأن المزور على أهبة تناول الطعام أو على وشك الخروج أو مشغول بشيء ، ينبغى ألاَّ يتوانى فى الانصراف .

وهذه الآداب جميعها تعود فائدتها إلى الزائر والمزور كليهما ، إذ بالمحافظة عليها تنمو العلاقات الطيبة وتصفو القلوب .

٧ — التفريج عن ذوى الكروب

المسلم أخو المسلم : يؤازره ويعينه فى أوقات الشدة ، ويأخذ بيده فى حالات الضيق ، وينصره ويواسيه ، ويجلب له كل خير ، ويدفع عنه كل ضير ، وذلك من مقتضى الأخوة ؛ لأنها تدعو إلى توثيق العلاقة توثيقا يُنَمِّى المحبة والمودة ، ويوجب التعاون والتكافل .

قال صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم : لا يَظْلِمُهُ ، ولا يُسْلِمُهُ . ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرّج عن مُسلم كُربةً فرج الله عنه كُرْبَةً من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة » فقد بين الحديث أوصاف المسلم الحق . وهى أنه لا يظلم أخاه المسلم ، ولا ينتقصه حقه ، ولا يخذله وقت الشدة ، ولا يتركه لعدوه ينكل به أو يقضى عليه . و إذا كان الانسان يحافظ كل المحافظة على أعضائه ، و يصونها عن كل ما يؤذيها ، و يحميها من كل ما يضرها فَلْيَحْمِ أخاه المسلم الذى اعتبره الشارع عضواً منه ، ولْيَنصُرْه و يساعده ما وجد إلى ذلك سبيلا .

وعلى المسلم أن يضحى بشىء من راحته ووقته وماله فى سبيل منفعة الناس وخدمتهم وقضاء مصالحهم المالية والعلمية والأدبية : فإن ما يبذله المرء من المجهود والوقت ، وما ينفقه من المال فى قضاء مصالح غيره ، لا يضيع ، بل يثاب عليه من الله القدير العليم الذى يقضى له حاجاته . فان بذل فى ذلك قليلا ، نال به من الله خيرا كثيرا. فليستعنِ المرء على قضاء حاجته بقضاء حاجات الناس . وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « ومن كان فى حاجة أخيه كان اللهُ فى حاجته » .

والمسلم الحق هو من يسعى لدفع البلايا التى تحل بالمسلمين فى الحياة الدنيا ، فمن أصابته مسغبة بذل له من ماله أو حث الأغنياء على معونته ؛ ومن أخنى عليه الدهر فسلبه ما كان لديه من عزة وجاه وثراء ، جاهد للترفيه عنه وشد أزره ، وعمل على إنهاضه من كبوته ، ومن بُلِيَ بالعطلة بَحَثَ له عن عمل يرتزق منه ، ومن حاق به ظلم رفعه عنه إن استطاع ، ومن انتابه مرض عاونه على اتخاذ وسائل الشفاء . وبالإجمال يسعى لإخوانه فى إزالة

النوائب أو تخفيفها ، وقد ضمن الله لفاعل ذلك رفع الكُرَبِ عنه يوم القيامة ، وكربُ يوم القيامة شديدة قاسية لا تماثل كرب الدنيا ، وليس هناك من سبيل إلى درئها عن النفس يوم القيامة إلا أن يقدم المرء فى هذه الحياة ما يدفع به كرب المسلمين ومصائبهم ؛ ليكون ذلك ذخراً له ينفعه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وقال صلى الله عليه وسلم : « الساعى على الأرمَلة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله » فصونُ الأرامل والمساكين ، والسعىُ فى قضاء مصالحهم وجلب ما يحتاجون إليه ، من الأمور التى أمر بها الشرع ، وعدها كالجهاد فى سبيل الله ، ولما كان للمجاهد المكانة العالية فى النفوس ، والذكر الحسن فى الحياة الدنيا ، ثم يدخله الله يوم القيامة جنات تجرى من تحتها الأنهار خالداً فيها ، ونعم أجر العاملين — كان كذلك جزاء الساعى على الأرمَلة والمسكين ، الذى يكد ويتعب ، ويجاهد وينصَب ، ليكفىَ تلك الأرملةَ حاجاتها بعد أن فقدت بعلها الذى كان يرعاها وينفق عليها ، فهو بذلك يخفف عنها من ألم المصيبة ، ويسليها عن الفجيعة ، ويكف يدها عن المد ، ويصون وجهها عن العَرْض ، وكذلك يصنع للمسكين الذى فقد المال وعجز عن الكسب ، أو قدر ولكنه لم يجد العمل ، فهو يجمع المال بجده وكده لا ليمتع نفسه وولده ، أو لينفقه فى البذَخ واللذة ولكن ليَسُدَّ به جَوْعة المسكين ويغنيه عن الاستجداء ، فيحفظ لوجهه ماء الحياء ، ولنفسه خلق العفاف ، وهو خليق بمرتبة المجاهدين ومنزلة المقربين .

فالعاقل من خدم بماله وجاهه وقوته ذوى الحاجات وأرباب العاهات ؛ لينال المنزلة العالية والجنة الخالدة ، ويقىَ المجتمع شر المتعطلين البائسين ،

واليائسين الذين لا يجـدون ما ينفقون . أما إذا بَخِل المرء على المحتاجين المستضعفين بفضله وعلمه وما وهب الله له من مال فإنه يذم ويندم وينبذه المجتمع وينال العقاب فى الدنيا والآخرة .

عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنـه قال : قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : « أطعموا الجائع ، وعودوا المريض ، وفكوا العانى » .

فما أمر به الشرع إطعام الجائع وقد حث على ذلك القرآن فى مواضع كثيرة منها قوله تعالى :

« فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ * يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ » .

فيجب إطعام الجائع إنقاذاً له من ألم الجوع ، ومحافظة على صحتـه بل حياته إن كان يُودِى بها فَقْدُ الطعـام. وقد أثنى الله على الذين يفرجون الكرب بالإطعام فى قوله تعـالى :

« وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً » .

وقد أوجب الله علينا فك الأسير أى تخليصه من أيدى العـدو بمال أو غيره ؛ لننقذ الأسرى من الذل والهوان ، وننجيهم من العذاب والعقاب ، ونردهم إلى ديارهم ، وفى ذلك إعزاز للمسلمين ، ولكلمة الله .

ومن الأمثلة العالية فى السّخاء وتفريج الكروب ما روى عن ابن عباس قال : قحط الناس فى زمان أبى بكر رضى الله عنـه . فقال أبو بكر : لا تُمْسون حتى يُفَرِّج الله عنكم . فلما كان من الغد جاء البشير إليه وقال : قَدِمَتْ لعثمان ألفُ راحـلة بُرًّا وطعاماً ، ثم قال : فغدا التُّجار على عثمان ، فقرعوا عليه البـابَ ، فخرج إليهم وعليه مُلاءة قد خالف بين طرفيها على

عاتقه ؛ فقال لهم : ما تريدون ؟ قالوا : قد بلغنا أنه قدم لك ألفُ راحلة بُرًّا وطعاماً ، بعنا حتى نُوَسع به على فقراء المدينــة . فقال لهم عثمان : ادخلوا . فدخلوا ، فإذا ألفُ وَقْرٍ قد صُبَّ فى دار عثمان . فقال لهم : كم تُرْبِحُونى على شرائى من الشــام ؟ قالوا : العشرة اثنــا عشر . قال : قد زادونى . قالوا : العشرة أربعة عشر . قال : قد زادونى . قالوا : العشرة خمسة عشر . قال : قد زادونى . قالوا : من زادك ونحن تجار المدينة ؟ قال : قد زادنى الله لكل درهم عشرة . فهل عندكم زيادة ؟ قالوا : لا . قال : فأُشْهِدكم معشرَ التجار أنها صدقة على فقراء المدينة .

وقد أمر الدين بالزكاة لأن بها معاونةَ الفقراء والضعفاءِ والمُعْوزين ، وسدَّ عَوَزِهم ، وتنفيسَ كربتهم ، وقضاءَ دَينهم ، وإدخالَ السرور عليهم ، وناهيك قوله صلى الله عليه وسلم عنــدما سئل : أى الناس أحب إليك ؟ قال : « أنفع الناس للناس » . قيل : يارسول الله أى الأعمال أفضــل ؟ قال : « إدخال السرور على المؤمن » . قيل : وما سرور المؤمن ؟ قال : « إشْبَاع جَوْعته ، وتنفيس كُرْبته ، وقضاء دينه » .

٨ — تواد المسلمين وتوثيق الروابط بينهم

جاء الدين الاســلامي حافلا بالآداب التى توثق العلاقة بين الفرد والمجتمع ، وتنظم صِلات المسلمين بعضهم ببعض ، وتبين ما لكل من حقوق وما عليه من واجبـات . وقد حثت الشريعة الغرّاء على الألفة والتعاون لمـا فيهما من ســعادة وقوة للفرد والمجتمع ، ونفرت من العزلة والتنازع ، فقال جل شأنه :

« وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا » . وقال تعالى : « وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ » .

وقال عليه الصلاة والسلام :

« الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا » . وقال : « لاَ تَقَاطَعُوا وَلاَ تَدَابَرُوا وَلاَ تَحَاسَدُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَاناً ، لاَ يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ » .

وحث الدين على أن يسعى الفرد الواحد فى خير الكل ، كما يسعى الكل فى مصلحة الفرد ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام :

« مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَوَاصُلِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ : إِذَا اشْتَكَى عُضْوٌ مِنْهُ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ » .

فجميع المسلمين كجسم واحد ، وكل فرد منهم كعضو من أعضاء ذلك الجسم ، يألم الكل لألم الفرد الواحد ، ويفرح الكل لفرحه . ومن هنا تتم السعادة ، وتُتَبادل المنفعة ، وتكون التضحية من الفرد للمجتمع ، فيتحقق معنى الاجتماع . ولو اشتغل كل فرد بمنفعته الذاتية ، ورأى أن منفعة غيره ليست منفعة له جَرَّ ذلك إلى قطع المبادلات ونبذ المعاملات التى لا قِوام للحياة إلا بها .

وقد حثنا الإسلام على ما تحاول الأمم تحقيقه الآن بإنشاء عصبة الأمم . فحبب إلينا السلام ، وأمرنا بإصلاح ذات البين والتآخى قال تعالى :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » . وقال : « وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ، وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » .

وهناك من قواعد التشريع ما يدل على شدة حرص الدين الإسلامى على بقاء الكتلة الاسلامية سليمة منيعة ، وعلى التوثيق بين عناصرها توثيقاً شديداً . فإن هذا الدين الحنيف يأمر تابعيه بالإحسان إلى الناس وكف الأذى عنهم . قال الله تعالى :

« وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ، وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ »

وقال تعالى : « وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ، ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » .

وقال صلى الله عليه وسلم لعلى كرم الله وجهه : « إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَسْبِقَ الصِّدِّيقِينَ فَصِلْ مَنْ قَطَعَكَ ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ ، وَاعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ » . ويقول عليه السلام : « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ : لَا يَظْلِمُهُ ، وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ . كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَعِرْضُهُ وَمَالُهُ » وقال : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ ؟ قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ . قَالَ : إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ » أى التى تقطع الصلات .

وقد أمر الدين بأداء الحقوق لأصحابها و باستعمال الحسنى فى المعاملة . قال الله تعالى :

« وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً »

كما أمر أن يحب المرء لغيره ما يحب لنفسه ، وأن يكره له ما يكره لها ، وبذلك تُستأصَلُ شأفة الفردية المرذولة ، ويُقضى على حب الذات والمصلحة الخاصة .

ونهى الدين عن السخرية من الناس وعن اللمز والتنابز بالألقاب ، كما نهى عن التجسس والاغتياب والنميمة إلى غير ذلك من الأوامر والنواهى التى وردت لإصلاح حال العالم الإسلامى وتنظيم شؤونه ، وتوثيق ما بين أجزائه حتى تستمر الصلة بين الفرد والمجتمع ثابتة متينة .

وقد سلك الإسلام طريقاً عملياً لتوثيق الصلة بين المسلم وجماعة المسلمين فشرع للناس أن يجتمعوا فى مساجدهم كل يوم خمس مرات ، وفَضَّل صلاة الجماعة على صلاة الآحاد ، وأوجب على أهل المدينة أن يجتمعوا يوم الجمعة من كل أسبوع فى مسجد يسعهم ، وشرع اجتماع أهل المدينة مع أهل القرى المجاورة فى كل سنة مرتين لصلاة العيدين ، وأوجب الحج فى العمرة مرة واحدة ليتمكن المسلمون عامة من الاجتماع فى الموضع المقدس بمكة ، فتراهم يَنْسِلون إليه من كل حَدَبٍ زَرافاتٍ وَوُحْداناً ، إناثاً وذُكْراناً

فالصلاة والحج من أكبر عوامل التحابِّ والإئتناس ، وما الزكاة إلا مظهر من مظاهر الحرص على بقاء الصِّلات بين المسلمين سليمة متينة ، إذ يمتنع التصادم بين الفقراء والأغنياء ويشعر الكل بأنهم فى كنف دين رحيم عادل ، فيعطف بعضهم على بعض وتسود الألفة والوحدة الروحية ، ويتذكرون أنهم جميعاً يسلكون سبيلاً واحدة ، ويعملون لغاية واحدة شريفة .

٩ — التعفف عما فى أيدى الناس وكسب المال من طرقه المشروعة

ما أحسن أن يعيش المرء قانعاً بمـا رزقه الله فى هذه الحياة فلا يمتـد بصره إلى ما بأيدى سواه ، ولا تتطلع نفسه إلى سلب حقوق الناس وظلمهم والاعتداء على ما وهب الله لهم من نعم . فإن القانع يشعر بسعادة واطمئنان وسكينة ، كما يشعر أنه قد ملك الدنيا بما فيها . لأن له نفساً راضية بما قسم الله لها ، آمنة مطمئنة ، لم يَتَسَرَّبْ إليها الْجَشَعُ الذى هو من أقبح الخلائق وأسوأ الشمائل ، وأعظم الآفات ، ولا يزال صاحبـه مذموماً ، وبأقبح الصفات موسوماً ، لا تعرض له القناعة ، ولو كانت الدنيا بأسرها متـاعه ، قد مَلَأَ حُبُّ الدنيا قلبَه ، وغمر التهافت عليها عقله . فهو لا يَرْضى باليسير ولا يقنع بالـكثير . بل شأنه أكل الدنيا خَضْماً وقضماً ، فلا تراه أبداً إلا منهوماً لا يقنع ، وجائعاً لا يشبع ، ومقيماً على الطمع لا يُقْلِعُ ، وقلما يخلو من الحسد ، أو يستفيق من الـكمد ، قد جعل الفقر نُصْبَ عينيه ، ولم يتوكل على خالقه ، ولم يقنع بقسمة رازقه ، فما أَخْسَرَ صفقته ، وما أجل مُصابه .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَصْبَحَ مِنْـكُمْ آمِنـاً فى سِرْبِهِ ، مُعَافًى فِى بَدَنِهِ ، مَعَـهُ قُوتُ يَوْمِهِ ، فَـكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا » . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : مَا مِنْ يَوْمٍ إِلاَّ يُنَادِى فِيهِ مَلَكٌ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ: يَا ابْنَ آدَمَ ، قَلِيلٌ يَـكْفِيكَ ، خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ يُطْغِيكَ . وقال بعض العلماء : أطيبُ العيش القناعة ، وأنكد العيش الجشع .

ومن الأخلاق الذميمة التى تجعل الإنسان بخيلاً بما فى يده ، مُتَطَلِّعاً إلى أخذ ما بيد غيره — الحرصُ والإفراطُ فى حب المال وجمعه ، ولو أدى

ذلك إلى إهدار الكرامة وإراقة ماء الوجه . وهذا الخلق الذميم يؤدى إلى الطمع فلا يقنع صاحبه بما أوتى وإن كان كثيراً ، ويحاول دائماً الاستيلاء على حقوق الناس من غير أن يراقب الله أو يراقب ضميره . وهذه حال من لا يرى لنفسه قَدْراً ، ويرى المال أعظم خطراً ، وليس لمن كان المالُ عنده أجَلّ ، ونَفْسُهُ عليه أقَلّ ، إصْغاءٌ لِتأنيب ، ولا قبولٌ لتأديب

روى أن رجلاً قال : يارسول الله ، أوْصِنى . قال : « عَلَيْكَ بِالْيَأْسِ مِمَّا فِي أَيْدِى النَّاسِ ، وَإِيَّاكَ وَالطَّمَعَ فَإِنَّهُ فَقْرٌ حَاضِرٌ » . وعن سهل بن سعد قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، عَلِّمْنِى عَمَلاً إذَا أنَا عَمِلْتُهُ أحَبَّنِى الله وأحَبَّنِى النَّاسِ . فقال : « أُزْهَدْ فِى الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللهُ ، وَأزْهَدْ فِيمَا فِى أَيْدِى النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ » فلا كنز كالقناعة ، ولا عاصم من الزلات كالتعفف . فالقانع لم يُدَنِّسْ نفسَه الحرصُ والشُّحُّ ، ولم تُفْسِد قلبَهُ الأطماعُ الأشعبية ، ولم تملك الدنيا زمامَه فتصرِّفَهُ بكل وجه . إذا طلب أَجْمَلَ فى الطلب ، وإذا ظَفِر بقليل من النعمة شكر ، وإذا حاولَتْ عواملُ التكاثرِ وحبِّ الظهور أن تَخْدَعَهُ وتَسْتَهْوِيَهُ تغلب عليها بقوة عزيمته ، لتَسلم له مروءتُه ، وينجوَ من المآزق والمخاطر ، ومواضع الذلة والمهانة ، قال عمر رضى الله عنه : « إن الطمع فقر ، وإن اليأس غِنًى ، وإن من يئس مما عند الناس استغنى عنهم » .

ومن دلائل الجشع مسألةُ الناس والإلحاحُ فى طلب المعروف منهم ، وفى ذلك مذلة ومهانة وتحقير للسائل . ولا يَنْبُل الرجل حتى يَعِفَّ عما فى أيدى الناس ولا يسألَهُم طعاماً ولا مالاً فإن المسألة آخرُ كسب الرجل ، ومن دفعته الحاجة المُلِحَّةُ إلى ذلك فسأل من يعلم أنه يقضى حاجته فلا

حرج عليه ، غير أن إلحافه فى السؤال مدعاة إلى بغض الناس له و إدبارهم عنه . فخير للمرء أن يحتال لحاجته ما استطاع . فقد روى الزبير بن العوام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلاً فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الْحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ » . وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ سَأَلَ وَعِنْدَهُ مَا يُغْنِيهِ فَإِنَّمَا يَسْتَكْثِرُ مِنْ جَمْرِ جَهَنَّمَ » .

ولما كان المال ضروريا للحياة والحاجة إليه لازمة ، ومَن عَدِمَ المالَ لم يَسْتَقِمْ له دين ولا دنيا ، ولَحِقَهُ الْوَهْن فى نفسه ومروءته وأخلاقه — كان من الواجب أن يسعى المرء لكسب المال من الطرق المشروعة كالزراعة والتجارة والصناعة وما إليها .

وقد جاء فى السنة الشريفة أحاديث تحض على التجارة والزراعة وكسب المال الحلال : من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَطْيَبَ الْكَسْبِ كَسْبُ التُّجارِ الذينَ إذا حَدَّثُوا لَمْ يَكْذِبُوا ، وإذا اؤْتُمِنُوا لَمْ يَخُونُوا ، و إذَا وَعَدُوا لَمْ يُخْلِفُوا ، و إذا اشْتَرَوْا لم يَذُمُّوا ، وإذا بَاعُوا لم يُطْرُوا ، و إذا كان عليهم لم يَمْطُلُوا ، و إن كان لَهُم لم يَعْسِرُوا » وقال : « لا يَغْرِسُ مُسْلِمٌ غَرْساً ولا يَزْرَعُ زَرْعاً فيأكلَ منه إنسانٌ أو دَابَّةٌ أو طَيْرٌ أو سَبُعٌ إلا كانت لَهُ به صَدَقَةٌ » . وقال : « مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا حَلالاً اسْتِعْفَافاً عَنِ الْمَسْأَلَةِ ، وَسَعْياً عَلَى أَهْلِه ، وتَعَطُّفاً عَلَى جَارِه ، بَعَثَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهُهُ مِثْلُ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، وَمَن طَلَبَهَا حَرَاماً مُكَاثِراً بِهَا مُفَاخِراً لَقِيَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ » .

وقد جعل الدين طلب الرزق الحلال تعففاً عما فى أيدى الناس فرضاً

فقال صلى الله عليه وسلم : « طَلَبُ الْحَـلاَلِ وَاجِبٌ عَلَى كلِّ مُسْلِمٍ » . وأثنى الصحابة رضى الله عنهم ذات يوم على رجـل فقالوا : يا رسول الله ، إن فلاناً يصوم النهار ويقوم الليل ويكثر الذكر . فقال : « أيكم يَـكْفِيهِ طعامَهُ وشرابَهُ » ؟ فقالوا : كلنا يارسول الله. فقال: « كُلُّـكُمْ خَيْرٌ مِنْهُ » . فهذا يدل على أن الانقطاع للعبادة إذا كان يشوبه شيء من الضيق والحاجة إلى الناس لا يكون فضيلة دينية ما لم يَعْضُدْها فضيلة كسب المال والاستغناء عما بأيدى الناس ؛ لأن الـكسب وطلب الحلال من المـال من مقتضيات المروءة التى لا منـدوحة عنها ؛ فإن المـال وسيلة إلى الانفاق فى وجوه البر واصطناع المعروف ، وتوفير وسائل المعيشة ، ولذا كان من الواجب أن ينفقه المرء فيما يُكْسِبُهُ الحمد ويدفع عنه اللوم ، أو يؤدى به الحقوق الواجبـة لله وللنفس وللناس ، فيصون به دينه وعرضه وخلقه . فالقليل من المـال الذى يكفى ذلك إذا صحبته القناعة والعفة كان محموداً .

وعلى المرء ألاَّ يَمُدَّ عينيه إلى ما وراء ذلك مما يزيد عنـاءه ، ويُكْثر آلامه ، ويَزرع فى قلبه الحرص والشح والجشع ، فإنه إن قنَع بما حَصَّلَه من قليـل المـال من الطرق المشروعة عاش عزيز النفس ، كامل المروءة ، واستبقى لنفسه راحة البال والطمأنينة .

وخير المـال ما كسبَه الإنسان بالعمل والجد والاجتهاد ، قال صلى الله عليه وسلم :

« مَا أَكَلَ أَحَـدٌ طَعَاماً قَطُّ خَيْراً مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ » .

فقـد وضح رسول الله صلى الله عليـه وسلم أن أفضل طعام يأكله

الإنسان ما كان بكده واجتهاده كأن يعمل فى صناعة أو زراعة أو تجارة أو غير ذلك ، وإن نبى الله داود عليه السلام — وقد آتاه الله نعمة عظيمة وملكه على بنى إسرائيل — كان يأكل من عمل يده فكان يصنع الدروع ويبيعها ويقتات من ثمنها ، وذلك تشجيع لغيره على العمل والسعى وترك البطالة المؤدية إلى الفضول وارتكاب الشرور . وقالت عائشة رضى الله عنها « إن أطيب العيش ما أكل الرجل من كسبه » وقال سيدنا عمر رضى الله عنه : « إنى لأَرَى الرجلَ فيُعجبُنى فأقولُ . أَلَهُ حِرْفَةٌ ؟ فإن قالوا : لا ، سقط من عينى » والرجل العاقل هو الذى لا يعتمد على الثروة التى تأتيه عفواً بوراثة ، أو هبة ، أو زكاة ؛ فإن فى ذلك تعطيلاً للأعضاء عن العمل والحركة وما خلق الإنسان إلا للعمل والسعى

ولقد كان للسلف الإسلامى عناية بالصناعات التى اشتغلوا بها واحتاجوا إليها فى رقيهم وقد تَحَرَّوا فى كل ما زاولوه الكمال والإتقان بقدر ما وسعه جهدهم ، ووصل إليه علمهم .

فلكسب العيش ، ونيل العز والسعادة فى هذه الحياة ، لا بد للمرء — فى شِرعة الإسلام — من عمل نافع يعمله ، أو حرفة شريفة يحترفها.

والصناعات البشرية التى يعتمد عليها أكثر الناس فى تحصيل العيش والكسب كثيرة لكثرة فروع الأعمال المتداولة بين البشر بسبب اختلاف البُلدان والأقطار ، وتنوع المنتجات وتباين درجات الرقى . ومن الناس من يستهويه حب المال فيأخذ فى جلبه من طرق سيئة غير مشروعة كالسرقة والاغتصاب ، وأكل أموال الناس بالباطل من الربا والميسر وغيرهما من الوسائل التى تُتَّخَذُ شَرَكا لابتزاز الأموال من أربابها بدون وجه مشروع ،

وهؤلاء هم الأخسرون أعمالاً ، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، لأنهم جرَوْا وراء شهواتهم ، فبطَشوا بالضعيف ، واعتدَوا على الآمن، وكان الظلم دَيْدَنهم، والشَرَهُ شِنْشِنَتَهُم، ولذلك قال الله تعالى :

« وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيْوٰةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى » .

أما من طاب مَطْعَمُه ، وَخَلَصَتْ من حقوق النـاس ثروته ، وبرئ من المظالم دَخْلُه ، فقد ظفر من الخير بحظ كبير ، فخير مكاسب الدنيا الحلال ، وشرها الحرام . وبرهان ذلك من القرآن الكريم قوله تعالى :

« يٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبٰتِ مَا رَزَقْنٰكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » وقوله تعالى. « وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » .

ومن الحديث قوله صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبى وقاص .

« يَا سَعْدُ ، أَطِبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ ، وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، إِنَّ الْعَبْدَ لَيَقْذِفُ اللُّقْمَةَ الْحَرَامَ فِى جَوْفِهِ مَا يُتَقَبَّلُ مِنْهُ عَمَلٌ أَرْبَعِينَ يَوْماً ، وَأَيُّمَا عَبْدٍ نَبَتَ لَحْمُهُ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ » .

والخلاصة . أنه من الواجب على الإنسان أن يكتسب عيشه من طريق حلال ، ووجه محمود ، مع البعد عن الشَّرَه والحرص والطمع الفاحش والمأكل الخبيث ، وإن ربحاً جاء بالإثم والعار وقبح الأحدوثة ، أو بذل

الوجه وثَلْمِ المروءة لَهُوَ ربح زهيد وإن عَظُمَ قَدْرُهُ ، نَزْرٌ يسير وإن غَزُرَتْ مادتُه ، وَوَبِيلٌ وإن ظهرت هنـاءته ، وَوخيم وإن كان فى رَأْيِ العين مَرِيًّا . وإن الـكسب الشريف وإن قل مقـداره أو خف وزنه لأطيبُ مَذَاقًا ، وأَسْلَسُ مَساغًا ، وأَنْمَى بَرَكةً وأَزْكَى رَيْعًا .

١٠ — الابتعاد عن الميسر وأوراق النصيب

الْمَيْسِرُ أو القِمار هو أن يتغالب شخصان أو فريقان على مال ويكون غُنْمُهُ للغالب وغُرْمُه على المغلوب .

وكل أنواع القِمار محرمـة حتى اللعب بالنَّرْد ونحوه من صنوف الميسر الفاشية فى هذا الزمان .

وسبب التحريم يرجع إلى أمور منها .

أولاً — أنه يصد المقامرين عن الطريق القويم لـكسب العيش من وجوهه المشروعة ، ويميت فى قلوبهم روح العمل الشريف ، ويبعدهم عن جميع الأمور النافعة ، وعن العناية بالأمور الدينية والشئون العمرانية ، وعن كل ما يكون به صلاح معاشهم ومعادهم ، ويستولى الشيطان على نفوسهم الشريرة فيعيشون عيشة كلها شقاء وتعس ونكد . ذلك لأنهم بانكبابهم على الميسر لا يتمكنون من تحصيل ما هو مطلوب مرغوب ، كاكتسـاب الحلال للنفس والأهل والولد ، وكالصلاة وسائر العبادات التى بهـا ترقى النفوس ، وتتهذب الطباع ، وتصفو العقول ، ناهيك بما يقع بين المقامرين من العداوة والبغضاء والُجرْأة على الـكذب والأيمان الباطلة ، فيصـيرون

أعداء متخاصمين ، لا يتعاونون إلا على الإثم والعدوان ، وقد حَرَّمَ الله تعالى الميسر وبَيَّنَ أضراره فى قوله تعالى .

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ . فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ؟ » .

ثانياً — أن القمار كسائر الشهوات ، تزداد النفس فيه رغبة وشراهة كلما استرسلت فيه ، وتمادت فى اعتياده ، وهي لا تقنع من شهواتها بالقليل. فالمشتغل به كلما رَبح طَمِع فى الزيادة ، وكلما خَسِر طمع فى تعويض الخسارة ، ويستولى الطمع على النفس فتضعفُ القوى المدركة فلا تقوى الإرادة على ردع النفس عن ارتكابه ، ويمتنع التخلص منه إلى أن يحيط الفناء بأموال المقامر وتسوء عاقبته ويصير فى عسر شديد وخسران مبين .

ثالثاً — ما يكون فيه من فساد التربية وإضعاف القوى العقلية ، فإن من اتخذه سبيلاً لتكسبه ، وجعله وُصْلة إلى أكل أموال الناس بالباطل ، من غير أن يبذل عوضاً من عمل أو غيره ، تعودت نفسه الكسل وانتظار الرزق من السبل الوهمية ، والوجوه الخيالية ، فلا يبحث عن عمل مفيد ، ولا يفكر فى كسب يحتاج إلى إعمال الفكر وترديد الرّوية ، وذلك أدعى إلى فساد التربية ، وضعف القوى المفكرة ، وأدنى إلى تقويض دعائم العمران .

رابعاً — ما فيه من خراب البيوت وتبديد الأسر ، فلقد شاهدنا من

آثاره ما تقشعر منه الأبدان ، وتنقبض له النفوس ، وتفيض بسببه العيون.
من ذلك أن ينال المرء من أهله تُراثاً يَسْعَدُ به هو وخَلَفُهُ مِن بعده إن أحسن القيام عليه ، فيُحيط به الخَوَنَةُ الآثمةُ ، ويحسّنون له الميسر ، ويَعِدُونَه وافر الربح إن وثق بهم ، ووضع قليلاً من أمواله بين أيديهم — وما يَعِدُونهُ إلا غروراً — ولا يزالون به حتى يغتر بزخرف قولهم ، وحلو أمانيهم ، فينقاد إليهم ، وينيلهم مطلبهم ، ويمكنهم من ذلك الميراث . فيُكسبونه فى أول الأمر ما يَنْمِي به طَمَعُه وجشعه ، فإذا أنسوا منه ذلك مالوا عليه بالخسارة وهم يعدونه الربح إلى أن يتحول ماله كله إلى خزائن أولئك الفجرة ثم يَنْفُضُون منه أيديَهم وينفَضّون من حوله ، ناسبين ما أصابه إلى سوء حظه ، ونكد طالعه ، وعندئذ يلازمه الشقاء ، ويذوق ألوان البؤس والفاقة ، وقد ينتحر أو يقبع فى داره إيثاراً للاستخفاء والانزواء

والمضاربات من أقبح المياسر ، لأنها تبدد الثروة ولا ينال صاحبها ما أمَّل ، ولا يذوق من جَنَى عمله إلا صابَ الفقر والخسران .

وأوراق النصيب ضرب من الميسر لأن المرء يبنى بسببها قصوراً فى الهواء ، فينفق الكثير من ماله فى شرائها ، ويدفعه الطمع إلى مواصلة ذلك أملاً فى الربح الوهمى ، فينصرف عن العمل الجدى المثمر ، ويضرب فى أودية من الخيال والوهم ، ويألف الكسل الذهنى والجسمى ، ويعتمد على ما يصوره الوهم والخيال من الأمانى الكاذبة .

خامساً — ما فيه من الضرر البليغ الذى ينال المقامر بضياع وقته سدى من غير فائدة ، بل بإنفاق زمنه فيما يعود عليه بضرر محقق ماليّ وأدبيّ واجتماعيّ ؛ لأنه يقضى الساعات الطوال فى الميسر المُبغَضِ المذموم ،

وتـكون عاقبته المحتومة ضياع المال والجهد والوقت بما يؤذى العقل والجسم والنفس ، ولو أنه صرف كل هذا فى تحصيل علم أو أدب ، أو فى تحسـين حالته الاقتصادية والمعيشـية ، أو في أى عمل مفيد له أو لأمته أو للنوع البشرى ، لـكان أجدى وأولى .

سادساً — أن المقامر يتصل بالأشرار ويخالطهم فتسوء حالته النفسية والعقلية والخلقية ، ويصير شريراً مجرماً لا يبقى على المـال ولا يدخر شيئاً للمستقبل ؛ فيعيش تعساً منكود الحظ بائساً يائساً .

والقِمار المعروف عند العرب فى الجاهلية اللعب بأقِدَاح : وصفَته أنهم كانوا يشترون جَزورا (ناقة) وينحرونها قبل أن يَيْسِروا ويقسمُونَها أجزاء ، ثم يأتون بعشرة قِداح يقال لهـا الأقلام ولها أسماء خاصة : سبعة منها ذوات أنصباء ، وهى الفَذّ وله سهم ، والتَّوأَم وله سهمان ، والرَّقيبُ وله ثلاثة ، والحِلْسُ وله أربعة ، والنافِسُ وله خمسة ، والمُسْبِلُ وله ستة ، والمُعَلَّى وهو أعلاها وله سـبعة ، وثلاثة أغفال لا نصيب لها وهى الوَغْدُ وَالسَّفيحُ وَالمَنِيحُ . وكانوا يضعون هذه القِداح فى داخل جَعْبة تسمى الرِّبابة ، يُدخل واحد عدْل منهم يده فيها فيخلطها ثم يُخرج باسم رَجُلٍ رَجُلٍ قِدْحًا قِدْحًا فمن خرج له أحد الأغفال لم يأخذ من الجزور شيئاً ، ومن خرج له واحد من ذوات الأنصبة ربح من الجزور بمقدار سهامه وجعل حظه للفقراء .

وقد حرم الله هذا النوع من الميسر مع ما فيه من فضيلة التصدق على المساكين لما تضمنه من الرذائل والمفاسد ، فـكيف يكون بُغْضُ الله لميسر خلا من كل فضيلة ، واشتمل على كل رذيلة ، كمياسر زماننا هذا ، لا ريب أن بغض الله له أشد ، وإثم فاعله أعظمُ وأكبرُ .

فالعاقل من اتبع أمر الله وانتهى بنهيه ، وابتعد عن القمار بأنواعه كافة وعن مخالطة أولئك الأشرار الذين اتخذوه شركا يصيدون به أموال الغافلين ، فإنهم لا خلاق لهم فى الدنيا وما لهم فى الآخرة من نصيب .

الابتعاد عن الرِّبا

معنى الربا الزيادة يقال : ربا الشيء إذا زاد ، وأربى الرجل أى عامل بالربا .

ويكون الربا فى الديون بإقراض قدر معلوم إلى زمن محدود مع اشتراط زيادة فى نظير امتداد الأجل ، ويسمى « ربا النسيئة » وهذا هو المنهى عنه بقوله تعالى :

« الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ » . وقوله تعالى : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ » .

وهذا النوع معدود من الكبائر ، ولهذا لعن رسول صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهده .

ويكون الربا أيضاً فى بيع الشيء بنظيره مع زيادة أحد العوضين عن الآخر ، ويسمى « ربا الفضل » وهو المنهى عنه بقوله صلى الله عليه وسلم : « لا تبيعُوا الذَّهَبَ بالذهب وَالوَرِقَ بِالْوَرِقِ والبُر بالبر والتمر بالتمر والشعير بالشعير والملح بالملح إلاَّ سواء بسواء ، عينا بعين ، يداً بيد » وهذا النوع محرم أيضاً لكنه أقل إثما من سابقه .

وضروب الربا كثيرة ، وقد أوردنا بعضها فى شرح الآية الكريمة المتصلة بهذا الموضوع .

وأسرار تحريم الربا ما يأتى :

أولاً : يترتب على الربا الخراب والدمار لأن فى التعامل به مخالفةً صريحةً لأوامر الله تعالى وعدمَ اكتراث بنهيه فقد قال تعالى « يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَٰوا وَيُرْبِي الصَّدَقَٰتِ » أى أن الربا يذهب ببركة المال الذى يدخل فيه فيفنى جميعه ويذهب هباء . وهذا أمر مشاهد فإننا لا نكاد نرى أحداً من الناس يتعامل به حتى يصبح فقيراً معدماً لا يملك شيئاً . ولهذا ورد النهى عنه فى غير ما آية من القرآن الكريم ومن ذلك قوله تعالى :

«يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَأْكُلُوا الرِّبَٰوا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

والسر فى ذلك أن المقترضين يسهل عليهم أخذ المال من غير بدل حاضر ، ويزين لهم الشيطان إنفاقه ، ويغريهم بالاستدانة ، فيتضاعف الربا ، ولا يزال يزداد حتى يُثْقِلَ كاهلهم ، ويستغرق أموالهم ، فاذا حل الأجل لم يستطيعوا الوفاء وطلبوا التأجيل ، ولا يزالون يمطُلُون ويؤجلون ، والدين يزيد يوماً فيوماً حتى يستولى الدائن قسراً على كل ما يملكون ، فيُصْبحوا فقراء معدمين ، وهذا هو الدمار بعينه .

ثانياً : أن التعامل بالربا يؤدى إلى العداوة والبغضاء والمشاحنات والخصومات ، إذ أنه ينزع العاطفة من القلوب ، ومن هنا يكون التنافر والتدابر بدل التواد والتراحم فتضيع المروءة ويذهب المعروف ويحل بالقوم الخزى والعذاب فى الدنيا والآخرة .

ثالثاً : أنه يقتضي أخذ المرء مال غيره بدون عوض ، وفى هذا ضرب من الظلم ، لأن للمال حقاً وحرمة فلا يجوز لغير مالكه الاستيلاء عليه عنوة أو بطريق غير مشروع ، قال صلى الله عليه وسلم « حُرْمَةَ مَالِ الإِنْسَانِ كَحُرْمَةِ دَمِهِ » فلزم ألا يؤخذ بدون عِوَض ، ولا يصح اعتبار القدر الزائد بسبب الربا عوضاً عن بقاء رأس المال فى يد المدين زمناً لو كان فيه بيد الدائن لاستطاع الاتجار به والاستفادة منه ، لأن هذا الاتجار ربما لا يحصل وإن حصل فربما لا تحصل الاستفادة أما الدرهم الزائد فتيقن ولا يجوز مقابلة الموهوم بالمتيقن .

رابعاً : أنه يمنع الناس من الاشتغال بالمكاسب الأصلية الصحيحة ، كأنواع الحرف والزراعات والصناعات ؛ لأن رب المال إذا تمكن بعقد الربا من زيادة ماله ، خف عليه الكسب ، وسهلت أسباب المعيشة ، فيألف الكسل ، ويمقت العمل ، ويوجه همه إلى أخذ الأموال بالباطل ، وتزداد شراهته إلى الاستيلاء على كل ما يستطيع ابتزازه من الناس ، ولو كان فيه إرهاقٌ لهم ، وضياع لحقوقهم ؛ لأن حب المال قد أعمى بصيرته ، وأصم أذنه ، وجعل قلبه حجراً صلداً لا يلين ، فلا يرأف بفقير لفقره ، ولا يشفق على بائس لبؤسه ، ولا يرحم مسكيناً لِشِقْوَتِهِ ، بل لو استطاع أن يلتهم ما يجده حاضراً لديهم من لقيمات يسيرة ما تَرَدَّدَ وما توانى . وتزيد شراهة المُرْبين فى تنمية ثروتهم متى حصل قحط فى بلادهم ، لأن الناس يضطرون بسبب ما أصابهم من جوع وفقر إلى الاستدانة من هؤلاء الطغاة القساة الذين لا يرقبون إلاً ولا ذِمَّةً ، ولا يعرفون إلاَّ الوسائل الممقوتة التى يستنزفون بها دم الفقير ، ويستأثرون بالبقية الباقية من ماله

تَنْمِيةً لثروتهم بالسُّحْتِ والباطل .

ولقد أبدع شكسبير فى وصف هؤلاء الآثمين ، فصورهم تصويراً صادقاً وبَيَّنَ طباعَهم وأخلاقهم وقسوةَ قلوبهم وغِلْظة أكبادهم وســوء مُنْقَلبهم واتخذ (شايلوكَ) بطلاً فى رواية « تاجر البندقية » ونعته بأقبح ما ينعت به مرْبٍ ظالم وجعل عاقبة أمره خسرا .

١١ — الأمر بالمعروف والنهى عن المنـكر

المعروف هو ما استحسنه الدين ، وحث عليــه العقل ، ورضى به الضمير . والمنكر هو ما استقبحته الشريعة ، وأنــكره العقل السليم ، ونفر منه الضمير الحى .

فمن المعروف مساعدة الفقراء والمســاكين ، وإنشاء الملاجىء للضعفاء والمعوزين ، وبناء المدارس للتربية والتعليم ، وإصلاح المرافق الحيوية التى يترتب عليها سعادة الأمة ، ورد الحقوق لأربابها وغير ذلك من كل ما حث عليه الشرع وأدى إلي جلب الخير وإصلاح الحال .

والمنكر يكون فى المحظورات المنهى عنها عقلاً وشرعاً كتعاطى المسكرات ، وكالتجسس والغيبة والنميمة وغيرها من الرذائل ، ويكون فى المعاملات المنكرة كالغش والتــدليس فى الأثمان ، والتطفيف والبخس فى المكاييل والموازين ، وتبــادل الزدىء من الدراهم والدنانير ، والزائف من أوراق العملة ، والبيوع الفاسدة . ويكون فيما ينكر من حقوق الآدميين ، كأن يتعدى رجل على حدود جاره ، أو حريته أو عرضه أو ماله ، أو نحو ذلك . ويكون فى مخالفــة ما هو مشروع من العبادات ، وذلك بتعمد

تغيير أوصافها المسنونة ، كمن يقصد الجهرَ فى صلاة الإسرار ، والإسرارَ فى صلاة الجهر ، أو يخل بتطهير جسده أو ثوبه أو موضع صلاته ، أو يترك الصلاةَ فلا يؤديها ، والصيامَ فيفطر فى شهر رمضان بدون عذر شرعى ، ويقبض يده عن الزكاة فيمتنع عن أدائها — كل ذلك من المنكر الذى نفر الدين منه ونهى عنه .

وقد حبَّبَ الله إلينا الخير وأمرنا أن ندعو إليه ، وكرَّه إلينا المنكر ونهانا عنه وأمرنا بمنع غيرنا منه . كما أمرنا بالتناصح والإرشاد فقال تعالى :

« وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ » وَقال جل شأنه : « وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » . ووصف المؤمنين والمؤمنات بهما فقال : « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » . وَأبان جل شأنه أننا بهما خيرُ الأمم فقال : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ : تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » وأوضح سبحانه أن الأجر بهما عظيم فى قوله تعالي : « لاَ خَيْرَ فى كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أو إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ . وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيمًا » وشهد الله بالصلاح للمؤمنين الذين أضافوا إلى إيمانهم القيامَ بهما فقال : « مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ . وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ » . وَبيّن

جل شأنه أن قوماً استحقوا اللعنة بتركهما فقال : « لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ . لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » .

وأمر بهما رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وحذر من تركهما إذ جاء فى الحديث الشريف :

« لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُسَلِّطَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ شِرَارَكُمْ ثُمَّ يَدْعُو خِيَارُكُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ » .

وقال صلى الله عليه وسلم :

« مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ . وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ » .

والسر فى ذلك أن نفوس البشر تأمر بالسوء ، وتدفع الناس إلى مهاوى الضلال والفساد ، وإلى ارتكاب المنكرات والموبقات . وكلما استمرأت حلاوة اللذات المُرْدِيَة ، تمادت فى غيها إلى أقصى الغايات ، ولم تقف عند حد محدود أو نهاية معينة ، فإذا ما وجد فى الأمة الوعاظُ والمرشدون والمصلحون الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر كانوا كالكواكب المشرقة المضيئة ، فيُبَدِّدُون ظلماتِ الجهالة ، وينيرون للناس سُبلَ الحياة ، ويهدونهم إلى طرق السعادة . ذلك لأنهم يهذبون هذه النفوس الجامحة ، ويربون أفراد الأمة تربية دينية صالحة ، ويأخذون بأيديهم إلى أقوم السبل ، ويحولون بينهم وبين ما تشتهى نفوسُهم من اللّذات الفاسدة ، والأهواء الضالة . وإذا لم يرد الله خيراً بأمة فانعدم فيها

المصلحون هام ذَوُوا الشهوات فى مهـامه شهواتهم ، وَاسْـتَحْلَوْا مَرعاهم الوَخيمَ ، وسلـكوا للوصول إليها كل سـبيل ، فضلوا وأضلوا ، وشَقُوا وما سَعِدوا ، وأدركهم البلاء وحلت بساحتهم الأرزاء ، وكانوا شجى فى حلق أمتهم ، وحجر عثرة فى سبيل رقيها ، وسبباً لهتك سترها ، وسلب هنائها ، وتفشى الظلم والعدوان فيها ، فتسوء حالها ، وتذوق وبال أمرها .

وإذا رأى كبار الأمة منكراً فاشياً فى أمتهم فلم يغضبوا له ، ولم ينهَوْا عنه خوفاً أو نفاقاً ، أو عدم اكتراث بمـا يجلبه من الشقاء ، كانوا شركاء فى الإثم ؛ لأن السكوت على المنكر حليف النفاق قال تعالى :

«وَالْمُنَـٰفِقُونَ وَالْمُنَـٰفِقَاتُ بعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ : يَأْمُرُونَ بِالْمُنْـكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ، وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ . نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ . إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ » .

فصلاح الأمة وخيرها وسـعادتها تتوقف على العلماء العـاملين الذين يؤيدون الدين ، وينصرون الشريعـة ، ويبينون للنـاس مواطن الخطأ ، ويُبصِّرونهم بأحـوالهم ، ويحثونهم على التمسك بالفضـــائل ، وينهَوْنهم عن الرذائل .

والأمر بالمعروف والنهى عن المنـكر من أمهات الفرائض التى بهـا تهذب النفوس وترتقى الأحوال ، ويصان الدين من الضياع ، وبهما تنطوى القلوب على حب التعاون على البر والإحسان ، والتباعد عن العدوان ، وبهما تستنير العقول بكمال الحقائق الدينية وتطهر النفوس من أدران المعاصى، فتهتدى إلى أقوم طرق الرشاد ، وأوضح مَحَجَّات السداد .

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجبـان على كل المسلمين ، من الملك إلى المملوك ومن الأمير إلى الصعلوك ، إذ بهمـا تتم المصـالح ، وتشاد مدنية الحياة ، وأثرهما ظاهر فى أمرى الدنيا والآخرة .

١٢ — العطف على الضعفاء وعدم التكبر عليهم

من أهم بواعث الخير فى الإنسان أن يستشعر فى نفسه الشفقة ، ويفيض رقة وحنـاناً على كل بائس ضعيف ، وينـدفع بكل جوارحه إلى تخفيف ويلات المضطرين ، ومسح دموع اليتامى والمعوزين ، والترفيه عمن عضَّهم الفقر بنابه ، وأناخ عليهم الدهر بِكَلْكَلِهِ ، فأفقدهم عزَّهم وَحَوْلهم وجاهَهُم . ولا يُعْنَى بمؤاساة الناس إلا من تغلبت عليه عاطفة الشـفقة والرحمة فكان للخير نصـيراً . فالشفقة هى التى تبعث على رحمة الصغير ، ومعونة الضعيف ومساعدة البائس المسكين ، وهى التى تدعو إلى معاملة الخدم معاملة طيبة : بالتخفيف عنهم ، وعدم تكليفهم مالا يُطيقون ، ودفع أجـورهم إليهم غيرَ منقوصةٍ ولا مؤجلة ، والإحسان إليهم ، وترفيـهِ حالهم ، حتى يشعروا بالعطف والحنـو فيقبلوا على عملهم مخلصين مجدين . ونحن إن أسأنا إليهم فسهمنا مردود إلى نحورنا ، فإن من يتعسف مع خدمه قل أن يجـد منهم إخلاصاً أو عملاً جيداً .

فالواجب أن يسـاعد المرء الفقراء والمحرومين بإمدادهم بما هم فى حاجة إليه ، وأن يُطْعِمَ الخدم مما يأكل منه ، وأن يمد يد المساعدة لذوى العاهات والأمراض التى تعوقهم عن الـكسب فيُعينهم على المعيشة فى هذه الحياة .

وهناك أناس قد ملأت الرحمة قلوبهم ، أنشأوا جمعيات خيرية لا قصد

لها سوى مساعدة الضعفاء والفقراء ، فقامت هذه الجمعيات بإنشاء المدارس لتمهد لهؤلاء المساكين طرق المعيشة ، وَتُذَلِّلَ لهم وسائل الحياة ، وأنشأت الملاجىء التى تضم بين جدرانها اليتامى وأبناء السبيل وذوى العاهات والأيامى ، لتعوضهم بعض ما حُرِمُوه من نعمة الصحة والثراء ورحمة الآباء . وذلك من أجلّ عواطف الإنسانية الشريفة .

وقد أقامت الحكومات والجمعيات مستشفيات تلجأ إليها الطبقة الفقيرة البائسة التى لا تملك قوتها فضلاً على ما تدفع به غائلة الأمراض ، وبها يسعد الفقراء بنعمة الصحة والعافية ، ويَقْوَوْن على تحمل الأعباء الثقيلة فى الحياة . وهذه جمعيات الإسعاف الْمُنْبَثَّةُ فى أنحاء مختلفةٍ فى العالم تُسْدِى إلى الإنسانية أجَلَّ الْخِدَم فى إعانة هؤلاء الذين يُنْكَبُون فى غُدُوِّهِمْ وَرَوَاحِهِمْ بعدوان السيارات والمراكب الكهربائية ومفاجآت الأمراض .

والشفقة قوة تؤلف بين الأفراد فتجعل منهم أُسَرًا متحدة فى ميولها وأغراضها . فهى كالجذْبِ الذى يؤلف بين الكواكب ويربط بعضها ببعض فيجعل منها جماعة يدور أصغرها حول أكبرها على وتيرة واحدة ، ونظام محكم ، واتصال لا انفصام لعُرْوَتِه . وكلما زاد هذا الميل فى الجماعة توثقت عرا المحبة بينها ، وأُحْكِمَتْ روابط الألفة فيها ، فسَعَوْا للخير متعاضدين متسابقين .

وفضيلة الشفقة مصدرٌ للكثير من الفضائل : لأنها تكفنا عن فعل الأذى ، وتمنعنا من إيقاع الآلام بغيرنا ؛ فهى منبع العدل . ثم إنها تبعث

النفس على تخفيف الآلام عن الناس ، وتدعو إلى فعل الخير لهم وهو أصل الإحسان ، كما أنها تدعو إلى المساواة بين الناس فى التألم لهم ، ومشاركتهم فى وجدانهم ؛ لأن من أصول الشفقة أن يضع الإنسان نفسه فى منزلة غيره ، وَيُعْنَى بأحوال الناس عنايته بأحوال نفسه ، فيكره لهم ما يكره لها ، ويحب لهم ما يحب لها ، وهذا هو معنى المساواة . ولأنها مُجَّاعُ الخير أمر الله بها فى قوله : « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَٰنِ » .

ومن الناس من ملأ قلبَه الكبرُ فهو يستعظمُ نفسه ويُعجَبُ بها ، ويتكبر على غيره من الناس ، فلا يواسى بائساً ، ولا يطعم جائعاً ، ولا ينصر ضعيفاً ، ولا يشترك فى جماعات الخير . وذلك هو الظَّلُومُ الْجَهُول ؛ لأنه يستحقر غيره من الناس ويزدريهم ويستصغرهم ، ويأنف من مساواتهم ، وتأبى نفسه الانقياد لهم ، وتدعوه إلى الترفع عليهم . ولا ريب أن المتكبرين المتغطرسين هم آفة المجتمع ؛ لأن صَلَفهم يزرع العداوة والبغضاء فى قلوب الضعفاء ، ويُفْعِمُها بالحقد على هؤلاء الأغنياء الذين يُثيرون سَخَطَ الناس باحتقارهم إياهم ، وترفعهم عليهم ، تدبر قول الله تعالى فى ذم هؤلاء المتكبرين :

« ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَد قَسْوَةً ، وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَٰرُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ . وَمَا اللهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » . وقال تعالى : « إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ » وقال : « وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا . إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ »

أى لا تُعْرِض عن الناس بوجهك إذا كلمتهم أو كلموك احتقاراً لهم واستكباراً عليهم ، ولا تكن بَطِراً مختالاً ، بل أَلِنْ جَانِبَكَ لهم ، وتواضع لصغيرهم وكبيرهم ، واجْلبْ محبتهم إليك بحسن صنيعك معهم ، ولطف معاملتك لهم .

والسر فى ذلك أن ابن آدم — لِمَا لازَمَهُ من الحاجة وعدم الاستغناء بنفسه عمن سواه — لا حَقَّ له فى التكبر ، ولا يحسن أن يتصف بهذا الوصف الذى لا ينبغى أن يكون متصفاً به إلا من استغنى عَنْ سواه ، واحتاج غيره إليه ، وهو الله الكبير المتعال . فالمتكبر يستحق السَّخَطَ والمَقْتَ كما وردفىالحديث الشريف : « مَنْ تَكَبَّرَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَتَجَبَّرَ عَلَى الْخَلْقِ ، فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِسَخَطِ اللهِ تَعَالَى ، وَنَفَّرَ عَنْهُ قُلُوبَ السَّائِلِينَ ، وَاسْتَجْلَبَ الْعَدَاوَةَ وَالْبُغْضَ مِنْهُمْ » .

ومن الأمثلة الصالحة للعطف والرحمة على الفقراء والضعفاء أن سيدنا عمر رضى الله عنه خرج ذات ليلة ليتفقد أحوال رعيته ، فرأى ناراً فهرول إليها ، فاذا بامرأة معها صبيان وقِدْرٌ منصوبة على النار ، وصبيانها يتضاغَوْن ، فقال عمر رضى الله عنه : السلام عليكم يا أصحاب الضوء [وكره أن يقول : يا أصحاب النار] فقالت المرأة : وعليك السلام . فقال : أأدنو ؟ فقالت : أُدن بخير أَوْ دَعْ . فقال : وما بالكم ؟ قالت : قَصَّر بنا الليل والبرد قال فما بال هؤلاء الصبية يَتضَاغَوْن ؟ قالت : الجوع . قال : وأى شىء فى هذه القدر ؟ قالت ماء أُسْكِتهُم به حتى يناموا . اللهُ بيننا وبين عمر . فقال : رحمك الله وما يُدْرِى عمرَ بكم ؟ قالت يتولى أمورَنا ويَغفلُ عنا ؟ فانصرَف ثم عاد يحمل إليها دقيقاً وَأُدْمًا ، وبقى يَطْهُو معها ،

ولم يتركها حتى تعشَّى الأولاد وناموا ، فجعلت تقول : جزاك الله خيراً ، أنت أولى بهذا الأمر من أمير المومنين . فقال لها : قولى خيراً ؛ إنَّكِ إذا جئت أميرَ المؤمنين وَجَدْتِنِى هناك إن شاء الله .

فيجب على المرء أن يقوم للعجزة والضعفاء بأوفر نصيب من رحمته وعطفه : فيشفقَ عليهم ، ويعتنىَ بهم ، وينتصر لهم ممن يريد ظلمهم ، بل يَعُدُّ نفسه منهم ، ولا يأنف من الانتماء إليهم ، تطييباً لقلوبهم ، وحماية لهم من صَوْلة الظالمين .

قال صلى الله عليه وسلم : « خاب عبد وخسر لم يجعل اللهُ فى قلبه رحمةً للبشر » . وقال أيضاً : « اللهم أَحْيِنِى مسكيناً ، وأَمِتْنِى مسكيناً ، وَاحْشُرْنِى فى زُمْرَة المساكين » ؛ لأن ضعفاء البشر معرضون لضياع حقوقهم ، وَلحَاق الظلم بهم ، فاذا لم يكن المصلحون والقادة أنصارَهم وحُماتَهم ، نالهم الذل ولحقهم الأذى .

وخُلُقُ الرحمة لا وطن له ؛ لأنه يشمل كل مُستَضْعَف من الإنسان مهما كان جنسه وشعبهُ والأمة التى ينتسب إليها . قال تعالى خطاباً لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وحثًّا على الرأفة بالمساكين واليتامى والسائلين المحتاجين :

« فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » .

أثر التربية الاسلامية فى تهذيب النفوس

إن الدين شديد الأثر فى النفوس : يبعث فيها نوراً ، ويطهرها من الإثم والشر تطهيراً ، ويُنَشِّئُها على الصلاح والتقوى ، ويَزِيدُها يقيناً وإيماناً ،

ويُبَغِّضُ إليها الكفر والفُسُوق والعِصيانَ ، ويرشدها إلى سبل السلام وطرق الخير ، ويخرجها من الظلماتِ إلى النور ، ويدفعها إلى فعل المعروف ، ويبعدها عن المنكر .

ذلك لأن الدين يبين الواجب الذى لا ينبغى لأحد أن يحيد عنه قيد أنملة ، ويحض على الفضائل والآداب وعمل البر والخير ، ويأمر بتوحيد الله وإخلاص العبادة له والخضوع لإرادته ، واعتقاد أنه وَحْدَه المدبرُ لشؤون الكون : يعطى ويمنع ، ويضر وينفع ، ويحيى ويميت ، لا شريك له فى ملكه ، ولا معبود بحق سواه . فتخشع القلوب لهيبته ، وتطمئن النفوس لرحمته ، وتُذْعِن لسلطانه ، وتراقبه فى السر والجهر .

وقد فرض الدين على الناس العبادات كالصلاة والصوم والزكاة والحج ، ولها أثرها البالغ فى تهذيب النفوس وتربيتها ، وغرس الفضائل فيها ، واستئصال الرذائل منها .

والدين يرشد الناس إلى أن هذه الحياة الدنيا ليست إلا قنطرةً يعبر عليها الإنسان إلى الحياة الخالدة ، وأن حظه لا ينتهى عند هذا الأجل الدنيوى القصير ؛ بل سيتّصل بما قدر له فى العالم الآخر الذى سيلاقى فيه جزاء عمله : إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، ومن ثَمَّ يتّجه بكل قواه إلى اتباع أوامر الدين ، واجتناب نواهيه ، خشية من الله وخوفاً من عقابه وطمعاً فى ثوابه ، وتقرباً إليه جل شأنه .

وقد وعد الله الصالحين بالخير العميم والفضل الجزيل ، وبأن لهم الجنة خالدين فيها يتمتعون بنعيمها المقيم ، وأوعد المارقين من الدين بالسخط

والعذاب الأليم ، وهو العالم الذى لا يعزُب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، وهو القادر على تحقيق ما وعد به المتقين وأوعد به الكافرين. فمن آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر أقبل على المأمورات ووجوه الطاعات سراً وجهراً ، وأعرض عن المنهيات فى وحدته واجتماعه ؛ لأنه يجد على نفسه رقيباً فى خلواته يثيبه إذا أطاعه ، ويعاقبه إذا عصاه. هذا إلى ما يشعر به من سعادة وهناءة بما يملأ قلبه من عقيدة راسخة وأمل عظيم فى التمتع بالنعيم المقيم ، والفضل العظيم ، فى جنات النعيم .

وفى الدين من أصول الفضائل ، وأسس الاجتماع ، وقواعد العمران ، ما يسير بالإنسان قُدُماً نحو كماله . وكلها مؤسسة على حب الله ، ثم على حب المؤمنين إلى حد تسويتهم بالنفس . ولا ريب فى أن الإنسان إذا أحب خالقه وأطاع أوامره ، وأحب لأخيه ما يحب لنفسه ، فقد وصل إلى أرقى درجات الكمال .

أثر العبادات

جلت حكمة الله فى هذا الدين الحكيم . فقد طلب إلى الناس أن يعبدوه حق عبادته ، وأن يَدينوا بوحدانيته ، وجعل عبادته وسيلة إلى تهذيب طبائعهم ، وإصلاح سرائرهم . وإليك البيان :

أولاً : أمر الإنسان بالوضوء قبل الصلاة ، وبالطهارة العامة لتنظيف البدن وتطهيره من الأوساخ والأقذار ؛ محافظة على الصحة بدفع أسباب المرض والوقاية منها . وفى ذلك انشراح النفس ونشاطها ؛ لأن لها بالبدن ارتباطاً قوياً لا يجحد ، فكل تأثير فى الجسم يظهر أثره فى النفس ، فإذا

نظف الجسم انشرحت الروح وذهب عنها الكسل ، وسهل عليها إحسان العبادة وتأديتها على الوجه الأكمل .

ثانياً : أمره بالصلاة لأنها إذا أُدِّيت على الوجه المطلوب من الخشوع والتعظيم والحياء — غيَّرَتْ ما جُبِلَتْ عليهِ نفسُ الإنسان من الهلع الناجم من الركون إلى حظوظ الدنيا وإيثار العاجل على الآجل ؛ لأن وقوف المصلى بين يدى ربه يتضرع إليه ، ويستحضر خشيته فى قلبه ، ويتذكر عظمته ، ويخاف عقابه — يُهوِّن عليه حرصه على العاجل ، ويقوى رغبته فى الآجل .

والصلاة تحول بين صاحبها وارتكاب المنكر؛ لأنها — بما اشتملت عليه من الذكر والقراءة والركوع والسجود ومظاهر الخضوع لله سبحانه وتعالى — تجعل المصلى خالى الفكر من الشواغل الدنيوية ، مستحضراً خشية الله بقلبه ، متضرعاً إليه ، ممتثلا لإرادته ومشيئته ، وبذلك ترتدع نفسه عن الشهوات ، وتعدل عما كانت تصر عليه من الآثام والمنكرات . وإلى هذا السر العظيم يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى : « إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ » .

هذا إلى أن المصلىَ يعتاد الخضوع لله وحده ، والاعتمادَ عليه دون سواه وعدم الخوف إلا منه . وبذلك يكون قوى الإرادة ، عزيز النفس ، شجاعا مقداما ، يقدس الحق ويجاهر به دون أن تأخذه فيه لومة لائم .

وفى صلاة الجماعة واتباع المصلين لإمامهم فى جميع أعمال الصلاة تعويد النفوس الطاعةَ فى الخير ، والانقيادَ للرؤساء فى القيام بالواجب ، وإشرابَ قلوبهم المساواةَ والإخاء ؛ لأن الإنسان إذا اعتاد الوقوف فى صف يكون

فيه السيد بجانب المسود ، والمخدوم قريباً من الخادم ، والكل ذليل بين يدى المولى العزيز — لم يجد له فى هذا الموقف فضلاً على غيره ، بل ربما رأى غيره ممن هو أقل منه درجة فى الدنيا أفضلَ عبادةً منه ، فإذا انصرف من مكان الصلاة استحيا أن يرى لنفسه حقا فى ادعاء السِّيادة أو التفرد بالمزية .

ثالثاً : أمره بالصوم ولم يقصد الدين من ذلك مجردَ الإمساك عن الأكل والشرب عن كل مفطر من الفجر إلى الغروب ، بل المقصود أثر ذلك وهو كف النفس عن الاسترسال فى ميولها التى أُمِرْنَا بمجاهدتها بسلاح الصبر والتقوى ، ولا يتحقق ذلك إلا بكف اللسان عن الهذيان والفحش والغيبة والنميمة والكذب والمِراء ، وكَفٍّ السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه ، ومنْع البصر عن النظر إلى ما ينافى خشية الله تعالى ، وإلى هذه الحكمة البالغة من الصوم يشير الله تعالى فى كتابه الكريم بقوله :

« يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »

أى فرض عليكم الصوم لتتخذوا منه وقاية تحول بينكم وبين الميول المرذولة والمنكرات وسائر الموبقات . ومنعُ النفس عن مشتهياتها وسيلة إلى أن تسكن لربها وتخشع له ، وتتجمل بحميد الخلال ، وتتعود الصبر والثبات على المكاره . والصومُ سبيل إلى كل ذلك ، وهو يعود المرء حفظ الأمانة فى السر والعلانية ؛ فإن المحافظة على تأدية هذه العبادة فى أشد الأمكنة خفَاء ، وأبعدها عن أعين الرائين — دليل على كمال المروءة وعلو الهمة

والشجاعة الأدبية والحيـاء . ومن ذلك يتبين السر الذى من أجله رغبت الشريعة الإسلامية فى الصوم و بالغت فى الحث عليه .

رابعاً : أمر بالزكاة لتتعـود النفس السخاء والـكرم ، وتبتعـد عن الشح والبخل « وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » . و إن إخراج الزكاة تثبيت للإيمـان ، وكمال فى اليقين ؛ لأن المـال شقيق الروح و بذله من أشق الأشياء على النفس ، فاذا ارتاضت النفوس بإنفاق أحب الأشـياء إليها وهو المـال صارت خاضعة لصاحبها ، وقل طمعها فى اتباعه لميولها ، وآثرت ما عند الله تعالى على ما عنـدها ، فيزداد إقبالها على الخير و إحجامها عن الشر ، و إلى ذلك الإشارة بقوله تعالى :

« وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ » .

خامساً : أمر بالحج لتقـوية الإخاء بين المسلمين وَاطِّراح ما عساه يقع بينهم من التباغض والتحاسد والتخاذل . و إن زيارة الـكعبة المشرفة والأماكن التى تجاورها ، وتأديةَ شعائر الله تعالى ، والتزامَ الهيئات المُشْعِرَة بتعظيمه ، والوقوف عند الحدود المفروضة لإجلاله ، كل ذلك ينبه النفس تنبيهاً عظيما ، و يحملها على ذكر الله والخوف منه ، والخضوع لجلاله وعظمته ، وفى ذلك أجل المنافع وأعظم الخيرات .

هذا إلى أن المسلمين فى أوقات الحج يُحشَرُونَ فى صعيد واحد ، وتتجه قلوبهم إلى الله بإخلاص ، و يرفعون أيديهم إليه بالرجاء والدعاء ، مُجَرَّدِين

عما اعتادوا من الملابس ، ومرتدين زيًّا واحداً ، ومنقطعين عن علائق الدنيا ، ونادمين على ما اجترحوا من السيئات ، ومستشعرين الرهبة والرغبة : لا هَمَّ لهم غير طلب الغفران ، ورجاء رحمة الرحمن ، وكل ذلك يذكرهم بيوم الحشر الأكبر ، والهول الأعظم ، « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ » ؛ لأنهم فارقوا أموالهم وأهليهم ، واستوى عزيزهم وذليلهم فى الخضوع لله والوقوف بين يديه ، واجتمع المطيع منهم والعاصى فى الرهبة منه والرغبة إليه ، وأقلع أهل المعاصى عما اجترحوه ، وندم المذنبون على ما أسلفوه .

مما تقدم يتبين كيف جاء الدين الإسلامى بما يرقى نفس الفرد ويهذب أخلاقه ، ويكمل عقله ، ويجعله عضواً نافعاً فى المجتمع .

وقد استمسك المسلمون بمبادئه القويمة ، وتأدبوا بآدابه العالية فكان منهم من يضرب به المثل فى سمو النفس ، وكرم الأخلاق ، والفناء فى خدمة الدين والوطن ، والتمسك بالحق والجهر به

فهذا هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه : يلى أمر المسلمين فلا يمنعه علو منصبه ، وما لَهُ من مكانة فى القلوب — من أن يقول : (إنى وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى) فلا يتكبر ، ولا تأبى نفسه أن يطلب المعونة على أداء ما اضطلع به من أعباء الخلافة ، بل لا يأبى أن يفترض وقوعَ الخطأ وسوء التدبير من نفسه وأن يكون بذلك معرضاً لنصيحة المسلمين له ، وتأديبهم إياه .

وهذا هو فرد من أفراد رعيته يشعر بمقدار ما يجب عليه من مراقبة الخليفة ، ومن الاستعداد لتقويمه عند الحاجة ، فيجاهر عمرَ بذلك دون

خوف ولا وجل ، فيقول له : (والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بحد السيف) . ويسمع عمر هــــذه المقالة فتصادف هوى فى نفسه فيقول : (الحمد لله الذى جعل فى الأمة من يُقَوِّمُ اعوجاج عمر بالسيف) .

وهذا هو القائد العظيم خالد بن الوليد : يكون النصرُ حليفَه فى كل الوقائع ، ويُعْجَبُ به جنــوده فيفخرون بالقتال تحت لوائه ، ثم يعزله عمر ابن الخطاب عن القيادة فلا تأخذه العزة بالإثم ، ولا تحدثه نفسه بالخروج على الخليفة واستخدام ماله من نفوذ فى جنوده ، بل يؤدى واجبــه جندياً كأحسن ما يكون الأداء ، ويفتح البـــلاد ، ويدوخ بحسن تدبيره المشركين ، حتى يقول فيه عمر وهو الذى عزله : (أَمَّر خالد نفسه) .

وكما أثرت التربية الإسلامية فى الرجال كان لها أكبر الأثر فى النساء . وانظر إلى موقف الخنساء إذ تحرض أبناءها الأربعةَ على القتال فى حرب القادسية ، حتى إذا قتــلوا جميعاً ، وجاءها نعيهم — لم تزد على أن قالت : (الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته) .

ووَفَدَتْ سَوْدَةُ ابنــةُ عِمَارَةَ بْنِ الْأَشْتَرِ الهَمْدَانيــةُ على معاوية ابن أبى سفيانَ ، فاســتأذنت عليه فأذن لها ، فلما دخلت عليــه سلَّمت ، فقال لها : كيف أنت يابنة الأشتر ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين

قال لها : أنت القائلة لأخيك يوم صفين ؟

شمِّر كفعل أبيــك يابن عمــارة ... يومَ الطِّعانِ وَمُلْتَقَى الأقران

وانصر علياً والحسينَ ورَهْطَه ... واقصــد لهنْدٍ وابْنِها بهــوان

إن الإمامَ أخــو النبيِّ محمد علمِ الهــدى ومنارةِ الإيمان
فقُدِ الجيــوشَ وسِرْ أمام لوائه قُدُمًا بأبيضَ صارمٍ وَسِــنَان

قالت : إى والله . ما مثلى من رغب عن الحق ، أو اعتذر بالـكذب .
قال لها : فما حملك على ذلك ؟ قالت : حب على عليه السلام ، واتباع الحق .

فانظر إلى مقـدار حبها للحق ، وحرصها على الصـدق ، وشجاعتها النادرة بين يدى أمير المؤمنين . وإن شئت المزيد فاقرأ التـاريخ يحدثك عن هؤلاء الأطهار ، وعما غرسه الإسلام فى نفوسهم من كريم الأخلاق ، وجليل الصفات ، حتى جعلهم صالحين مصلحين ، وقادة للبشر أجمعين .

أثــر الدِّين فى الأمم

كانت الأمم قبل البعثة المحمدية فى جهالة جهلاء ، وضلالة عمياء ، وأباطيل قاتلة ؛ فـكانت دولة الفرس فى الشرق ، ودولة الرومان فى الشمال والغرب فى تنازع مستمر ، وحروب طاحنة : دماء مسفوكة ، وقوى منهوكة ، وكان الزَّهْوُ وَالتَّرَفُ والإسراف والتفنن فى الملاذ — بالغةً مبلغاً كبيراً . وكان شَرَهُ السلاطين والأمراء والقواد ورؤساء الأديان فى كل أمة — لا يقف عند حد ؛ فزادوا فى الضرائب ، وبالغوا فى فرض الإتاوات ؛ حتى أثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم ، وأتوا على ما فى أيديهم من ثمرات أعمالهم ، وانحصر سلطان القوى فى اختطاف ما بيد الضعيف ، وتبع ذلك أن اسـتولى على تلك الشعوب ضروب من الفقر والذل والاستكانة ، والخوف والاضطراب والتقهقر ؛ لفقد الأمن على الأرواح والأموال

وكانت العرب قبل البعثة المحمدية قد وقعت بينهم الفرقة ، وتقطعت

أوصال الألفة ، واختلفت كلمتهم ، واضطربت أحوالهم ؛ فكانوا فى بلاء عظيم : من جهل مطبق ، وبنات موءودة ، وأصنام معبودة ، وأرحام مقطوعة ، وغارات مشنونة . وقد وصلوا قبل البعثة إلى هاوية الانحلال الاجتماعى بما لم يعهد له مثيل فى تاريخ الأمم : فكانوا فى جهل بأحكام الدين الصحيح ومبادىء السياسة والحياة الاجتماعية ، فلم يكن لهم فن يذكر ، أو صناعة تنشر ، ولم يعرفوا شيئاً من قوانين الاجتماع ، وأصول العلاقات الدولية ، بل كانت كلُّ قبيلة أمةً قائمة بنفسها ، تتحفز لشن الغارة على جاراتها لأوهى الأسباب .

وقد فشا فى العرب كثير من العادات المنكرة : كشرب الخمور ، ولعب الميسر ، ووأد البنات ، والسلب والنهب . وكثيراً ما كانت الكلمة الواحدة تفضى إلى القتل . حتى لقد وصلت روح الغَدر والانتقام إلى درجة مُرَوِّعة ؛ فإن النساء لم يُرضهن سوى صبغ ملابسهن بدم القتيل ، وأكل كبده وقلبه . وفى هذا دلالة على منتهى الجفاء والقسوة والغلظة . هذا إلى أن منهم من جعل بعض الحيوان إلهاً لكثرة نفعه ، أو شدة ضرره ، ومنهم من تمثله فى الكواكب لظهور أثرها ، ومنهم من حسبه فى الأشجار لاعتبارات لهم فيها .

وجملة القول أنهم وصلوا إلى حال لا يستحقون فيها اسم الجماعة ، فقد أمعنوا فى القسوة والمنكرات ، ولم يتذرعوا بعلم ، أو يعتصموا بقانون ، وانحط الضمير الإنسانى فيهم إلى أسفل درجاته ، حتى استبدلوا بالفضيلة الرذيلة ، وبالخير الشر ، وساءت حالهم .

من أجل ذلك كان من رحمة الله أن بعث محمداً صلى الله عليه وسلم ،

فأقام الدين الصحيح فى الأرض على أسس متينة . بعثه ليصلح العقائد التى فسدت ، وَلِيَجْعَلَ الدينَ كلّه لله ، فأوضح للناس سبيل المعاملة الحسنة ، وأبان لهم طرق الخير ، وصرف همتهم إلى العمل النافع ، وحال بينهم و بين ما كانوا يفعلون ، و بيّن لهم أمثل الطرق للسير فى هذه الحياة حتى يصلوا إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

توجيه النفوس إلى المثل الأعلى فى الحياة

لقد جمل الإسلام المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها بخلال حميدة ، وحَلاَّهم بشمائل نبيلة ، ظهر أثرها وشمل نفعها الأفراد فى أنفسهم ، والجماعات فى مجامعهم .

فمن الخلال الفردية الجيدة — مجانبةُ المُحَرَّمِ ، والحرص على اجتناب الريب ، والكسب بعرق الجبين ، والمحافظة على الكرامة ، وعظم الثقة بالله ، والثبات على المذهب الحق ، والجهر به ، والاحتمال والصبر ، وأداء العبادة على وجهها ، وضبط النفس والخضوع للحق والتزام الصدق .

ومن الخلال الاجتماعية البليغةِ الأثر — المحافظةُ على مال الدولة ، والتلطفُ بالعمال ، والإحسانُ إلى الخدم ، ورعاية حقوق الجوار ، وشعور الحاكم بالتبعة ، واستماع الحاكم نصيحةَ المحكوم ، والصدقُ فى النصيحة ، وبذلُ الجهد فى سبيل النفع العام ، ونشرُ روح المساواة الصحيحة والسياسة العالية والعدل والإنصاف ، وتشجيعُ الجهر بالحق ، ومقتُ السِّعاية ، وفرطُ الحرص على الائتلاف ، و إجارة المستجير ، والصفح الجميل .

ولما كان المسلمون متمسكين بأخلاق دينهم — كانوا جمال الدنيا

وزينتها ، والمَغْرِس المبارك ، ومعدن الفهم ، وينبوع العلم ، والحسام فى العزم ، والصبر عند اللقاء ، والثبات فى اللأواء . كانوا أهل وفاء ، وأرباب جود ، يقرون بالحق ، ويَصْدُرون عنه ، ويصبرون عليه . ذكرى فعالهم سارت مسير الشمس ، وهبت هبوب الرياح ، وطبقت تخوم الأرض ، وانتظمت الشرق والغرب ؛ فالأيام تُنْشِدُها ، والليالى تترنم بها . ولا غرو فقد بعث الله إليهم رسولاً عقد بملته طاعتهم ، وجمع على دعوته أُلْفَتَهُمْ ، فنشرت النعمة عليهم جَناح كرامتها ، وأسلفت لهم جداول نَعيمها ؛ حتى حكموا العالمين ، وأخضعوا أطراف الأرَضين ، وملكوا الأمور على من كان يملكها عليهم ، وأمضَوا الأحكام فيمن كان يُمضيها فيهم ؛ فلم تَلن لهم قناة ، ولم تُقْرَع لهم صفاة .

الوحدة الدينية

الناس فى نظر الدين الإسلامى وحدة اجتماعية : يربط أجزاءها رباط الإنسانية ، ويجمعها أصل واحد ؛ فالدين الإسلامى دين عالمى إنسانى خلو من التحزب ، برىء من وصمات التعصب : نظر إلى كافة الناس نظرة المساواة ، فلم يؤثر طبقة على طبقة ، ولا لوناً على لون ، ولم يجعل لأحد فضلاً على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح . قال تعالى :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ »

وقال صلى الله عليه وسلم : (الناس سواسية كأسنان المشط) . وقال : (لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى) .

وليس أدلَّ على مبدأ المساواة الذى نادى به الإسلام من وقوف الناس بِعَرَفةَ على تباين لغاتهم وأجناسهم وألوانهم فى صعيد واحد : يتجهون إلى الله ، ويجأرون بالتلبية ، لا فرق بين عظيم وحقير ، أو غنى وفقير . فترى ذلك الحشد الحاشد من الناس فى تلك البقعة الطاهرة ما بين هندى وجاوى وصينى وعربى ومصرى وتركى : لا ترى ميزة لواحد على الآخر ، ولا تبصر غير علم المساواة يرفرف على رءوس الجميع .

وقد ساوى الإسلام بين الرجل والمرأة فى الحقوق والواجبات ، وفى العقائد والعبادات والمعاملات ؛ فلم يحرمها شيئاً مما يكمل خُلُقَهَا ودينها ، ولم يطلب إليها إلا ما هو كمال .

ومن مساواة الإسلام بين الناس فى الحرية عَمَلُهُ على إعتاق الأرقاء . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أولَ من بدأ بذلك ، فأعتق زيد ابن حارثة ، وسار على نهجه كثير من الصحابة ، حتى لقد كان بعضهم يشترى العبيد ليُحرِّرها ابتغاء وجه الله .

وقد جعل الله سهماً من مال الزكاة يدفع فى سبيل الإعانة على فك الرقاب . قال تعالى :

« إِنَّمَا الصَّدَقَٰتُ لِلفُقَرَاءِ وَالْمَسَٰكِينِ وَالْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى الرِّقَابِ »

ومن مبادىء الإسلام العدالةُ ، فقد أوجب على كل فرد أن يسلك سبيل العدل مع غيره ولو كان يشنؤه قال تعالى :

« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ » وقال : « وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا . اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » .

وهناك كثير من الأمثلة والوقائع التى تدل على أن الإسلام دين عدل : فمن ذلك أن أحد أمراء المسلمين أراد أن يبتاع بيتاً صغيراً لامرأة فقيرة غير مسلمة ليوسع به مسجداً ، فأبت تلك المرأة ، ثم شعرت بعزم الأمير على ابتياعه ولو بمضاعفة الثمن ، فأسرعت بالشكوى إلى الخليفة ، وسرعان ما ورد الأمر برد بيتها إليها .

ومن مبادىء الإسلام القويمة أنه يَعُدُّ المسلمين جميعاً إخوة ، وإن تباعدت الأقطار وتناءت الأوطان : فقد حث النـاسَ جميعاً على التحاب والمؤاخاة والتعاون، وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) . وقد أدرك الرسول الحكيم سر هذا المبدأ وصَدَرَ عنه فى أعماله : فكان أول عمل له بعد مهاجرته إلى المدينة أن آخَى بين الأنصار والمهاجرين ، فكان الأنصارى يُشْرِكُ المهاجرَ فى ماله وكلِّ شىء هو له ، وكان من نتائج ذلك أن علت كلمة الدين ، وكملت سعادة المسلمين ، وفتحوا الفتوح ، ومصروا الأمصار ، ودوخوا الممالك ، وتفيئوا ظلال العمران ، وأتوا من جلائل الأعمال بما يبهر العقول ويحير الأفئدة .

القضاء على العصبية الجاهلية

جاء الإسلام فاجتث عروق التفاخر بالأنساب ، وسَوَّى فى الحقوق والواجبات بين الشريف والوضيع ، والغنى والفقير ، والرجل والمرأة ، والنابغ والخامل ، ومحا ما كان يعتقده العامة من أن رجالَ الدين وسطاء بين الناس

وخالقهم . قال الله تعالى : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ) وقال صلى الله عليه وسلم لابنته فاطمة : (اِعْمَلِى يَا فَاطِمَةُ فَإِنِّى لاَ أُغْنِى عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئاً) فلا فضل لواحد على آخر إلا بالتقوى وصالح العمل : لا فضل لغنى على فقير إلا إذا أقرض الله قرضاً حسناً ، فتصدق ببعض ماله فيما يعلى شأن الفرد والجماعة ، ولا امتياز لعالم على جاهل إلا إذا كان لعلمه أثر فى رقى المجموع : فيرشد الضال ، ويعلم الجاهل ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويخترع ما يجلب الخير لأمته ويدفع الشر عنها . ولا فضل للحاكم على المحكوم إلا إذا عدل فى حكمه ، وأقام حدود الله ، وأخذ بيد الضعيف حتى يقوى ، أى أن الدين الإسلامى قد محا العصبية الجاهلية بتقرير مبادىء العدالة والمساواة والإخاء ؛ فانتظم بذلك شأن العرب وتكونت الدولة الإسلامية ذات الدستور العظيم ، وخضعت الأمم لها ، وسادت تحت لواء واحد هو لواء الدين . وبعد أن كانت العرب قبائلَ متفرقةً يكيد بعضها لبعض — اجتمعت كلمتها وتوحدت وجهتها ، وخضعت كلها لنظام واحد هو نظام التشريع الإسلامى ، وتكونت منها دولة قوية لها زعامة وسيطرة ونفوذ : امتد سلطانها غرباً حتى وصل جبال البرانس فى أسبانيا ، وشرقاً حتى حدود الصين فى أقل من قرن واحد . وذلك بفضل الأصول والآداب الإسلامية ، وما غرسه الدين فى نفوس العرب من الطهارة وقوة الإيمان .

التكافل العام بين جميع المسلمين

الفرد لا يمكنه أن يستقل بجميع حاجاته ومآربه ؛ فهو مضطر بحكم الضرورة إلى الاجتماع والمعاونة ، ولا يتحقق معنى الاجتماع إلا بالتكافل ،

وهو أن يكون هو وجميع المسلمين كجسم واحد ، وكل فرد منهم كعضو من أعضاء ذلك الجسم : يألَمُ الكل لألم الفرد ، ويفرح الكل لفرحه ، ويسعى الفرد فى مصلحة الكل وما يعود عليهم بالخير والسعادة ، كما يسعى الكل فى مصلحة الفرد . أى أن تسود بينهم روح الإيثار ، والتضحية والأخوة وإنكار الذات ، وذلك لا يتحقق فيهم إلا إذا كانوا متكافلين متوافقين .

عن أبي موسى الأشعرى رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً) ثم شبك بين أصابعه. فالبناء مكون من جدران يتصل بعضها ببعض، والجدار يكون من لَبِنَاتٍ أو حجارة . وللقطعة منها فى الجدار من القوة والمتانة ما ليس لها خارجَه :تُشَدُّ إلى ما حولها بالشِّيد . ويكون لها سند من جميع نواحيها ؛ ولهذا يصعب تحريكها فى جدارها بل يصعب تكسيرها . أما خارج الجدار فليس لها مناعة وقوة . فكسرها سهل . ونقلها أسهل . كذلك الجدار إذا كان قائماً وحده لا يبقى طويلا : تزلزله حوامل الأثقال إذا مرت بجانبه . وتعصف به العواصف . وتهزه الرياح . فاذا ما اتصل بغيره من طرفيه حتى يتكون من الجدر حجرة . ومن الحُجُرات منزل — رسخ فى مكانه . وثبت فى مقامه . لا تؤثر فيه الحوادث إلا بقدَر . فالجدار وحده ضعيف . وبأمثاله قوى شديد . ذلك مثل المؤمن المؤمن . فهو معه كالبنيان يشد بعضه بعضاً . والمؤمنون شأنهم التعاون والتناصر والتظاهر ، والتعاضد على مصالحهم الخاصة ، والمصالح العامة قال تعالى :

« وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ »

وقد عمل بهـذا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فآخى بين الأنصار والمهاجرين حتى علت كلمة الله وكملت سعادة المسلمين .

وكان مما شرعه الله لعباده المؤمنين فروض يتحتم على بعضهم أن يفعلها وعلى الباقين أن يرْقُبُوا فعلها ، حتى إذا لم يقم المكلف بأدائها ألزموه الأداء أو قاموا هم بها دونه ، وإذا أهملوا ذلك أثموا جميعاً . (وهـذا ما يسمى بلسان الشرع فرض الكفاية) . ولا معنى لهذا إلا أن الكل مخاطب فيما يتعلق بالمصالح الاجتماعية بما يخاطب به الفرد ، والفرد مخاطب بما يخاطب به الكل ، ولولا ذلك ما أثم الكل عند ترك البعض له .

ومتى كان التكافل كانت القوة للمسلمين : يستخدمونها فى التنكيل بمن اعتـدى عليهم حتى يستردُّوا حقوقا مغصوبة ، أو أرضاً منقوصة ، أو يُرْهبون به عدو الله وعـدوهم ، أو يسخرونها فى الانتفاع بخـيرات هذا الكون ، وتذليل عناصره بعمل الجمعيـات ، وإنشاء الشركات ، وإقامة النقابات . وبقدر ما يكون بين المسلمين فى أنحاء الأرض من حسن الصلات ، ومتين الروابط ، ووثيق العلائق ، تكون قوتهم ، وثبـات ملـكهم ، وإن كثرت الزلازل ، وتوالت العواصف ، وأجمع الأعداء من أمرهم ، وأَجْلَبُوا عليهم بخيلهم وَرَجِلِهم . وإن كان — لا قدر الله — التخـاذلُ والتدابرُ والتقاطع ، وانصرف كل إلى نفســه وهواه وشهوته — كان الضعف والانحطاط والفشل والخور ؛ فصيحة من عدونا وإبْرَاقٌ وإرعاد — تزلزل ملـكنا (ولا قدر الله) ، وتذهب بمجدنا ، وتجعلنا أذلاء فى ديارنا ، ضعفاء فى ديننا ؛ فنخسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين .

ولقد مثل الرسول صلى الله عليه وسلم اتحاد المسلمين . ومعونة بعضهم

لبعض بالتشبيك بين أصابعه ، وإدخال بعضها فى خلال بعض . وكذلك المسلمون إذا تضامت أيديهم ، وتظاهرت قواهم ، وتحابت نفوسهم ، وتساندت أممهم — زادوا قوة ، وخلقوا لهم عزة ، فدانت الأمم لسلطانهم ، وخضعت لأمرهم (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) .

حب الحق والخضوع له

من الصفات الحميدة التى أمر بها الدين حبُّ الحق والخضوع له . وذلك بتحرى الصواب ، والدقةِ فى الأحكام والأعمال ، والبعدِ عن الرياء والنفاق والكذب فى العبادات والمعاملات ، مع إقامة شعائر الدين كما وردت فى الكتاب والسنة ، والقضاء على البدع الباطلة ، والخرافات الكاذبة ، وما إلى ذلك من كل ما يغير معالم الشريعة ، أو يبدل فيها بالبهتان والباطل .

ومن حب الحق والخضوع له أن نعمل على نشر لواء الحق والعدالة ، وردِّ الحقوق لأربابها : بإنصاف المظلومين ، ورفع الحيف عمن وقع عليه الحيف ، وعدم قبول أقوال الفاسقين الغاشين ، والنمامين الآثمين إلا بعد التثبت والتأكد ؛ فإن بعض الظن إثم . قال تعالى :

« يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ * » .

وحب الحق يتجلى بالشجاعة الأدبية فى مصارحة الناس بالحق ، وأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر ، بألاّ تأخذ المرءَ رهبةٌ ولا رغبة ، ولا يستولى عليه الخوف والوجل فى الصراحة بالحق ، وإبداء الرأى

الذى يعتقده صواباً ، وتكليف الناس التمسكَ به ، وحملهم على الخير . قال صلى الله عليه وسلم (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ . وَهَذَا أَضْعَفُ الْإِيمَانِ) كما يتجلى فى الاهتداء بهدى الله ، وعدم العناد والمكابرة بالباطل ، والإخلاص فى السر والعلن . والاستماع لنصيحة الناصحين . والطاعة لأولى الأمر والدين . كما قال عليه الصلاة والسلام : (السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ حَقٌّ عَلَى الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ أَوْ كَرِهَ ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ . فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ) .

وإذا سادت هذه الفضيلة بين الناس كان التناصح والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر ، وأَرْشَدَ الناسُ بعضُهُمْ بعضاً إلى ما فيه الخير . وحذروا أنفسهم من الوقوع فى الضير ؛ وبذا يأخذون فى أسباب الترقى والتقدم ، ويُصلحون ما فسد من الأخلاق ، ويتجنبون ما قبح من الأعمال ، ويأخذ بعضهم بيد بعض فى التعاون على البر والتقوى ، والمسارعة إلى الخير ، وَتَنَكُّبِ طرق المفاسد والمساوئ ، ويسود النقد البرىء فى الصحف والحديث والخطابة . ويخشى كل واحد أن يكون الحق عليه لا له ؛ فيعمل على تكوين نفسه وتكميلها وتهذيبها . وهذا هو أساس الرقي ، وَدِعَامَةُ الحضارة والمدنية . قال تعالى :

« وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » .

فالعاقل المحب للحق يقبل كلمة الحق من غير تعصب ولا مشادَّة ولا عناد . لأن العناد فى قبول كلمة الحق إذا غرس فى النفوس كان داء لا يرجى

له شــفاء . وجرحاً ليس له دواء . ومهما بلغت الأنفس من الكمال أو حَصَّلت من السعادة فهى فى حاجة إلى النصح والإرشـاد ، وتبيان الحق والصواب .

وقد كان السلف الصالح خير قدوة فى حب الحق والخضوع له ، وكره الباطل والقضاء عليه . ولذا قال عمر رضى الله عنه : (لا خــير فيكم ما لم تقولوا ، ولا خير فىّ ما لم أسمع) وقال : (إنه لا يكون فينا معشر الأمة خير ما لم تكن فينا جراءة على مصارحة الخليفة نَفْسِهِ بالحق ، وتكليفه التمسك به إذا رأيناه زاغ عنه. كما لا يكون هو نفسه فيه خير إذا عصانا ، ولم يذعن للذى أرشــدناه إليه ودللناه عليه) وهــذا نهاية فى صراحته و إنصافهِ من نفسه . و إرشادهِ لولاة الأمور من بعده . ويدل على حبه للحق أن حَكَمَ لامرأة بالإصـابة وعلى نفسه بالخطأ فقال : (أصابت امرأة وأخطأ عمر) .

ومن كلامه للإمام على كرم الله وجهه :

« لا تكلِّمُونى بما تُكلَّمُ به الجبابرةُ ، ولا تتحفظوا منى بما يُتَحفظ به عنــد أهل البادرة ، ولا تخالطونى بالْمُصَانعَةِ ، ولا تظنوا بى أُستثقالاً فى حقّ قيل لى ؛ فإنه من استثقل الحقّ أن يقال له ، أو العــدل أن يُعْرَضَ عليه — كان العمل بهما أثقل عليه . فلا تكفوا عن مقالة بحق ، أو مشورة بعــدل ؛ فإنى لست فى نفسى بفَوْقَ أَنْ أُخْطِئْ ، ولا آمَنُ ذلك من فعلى إلا أن يكفى الله من نفسى ما هو أَمْلَكُ به منى » .

وكان الأمر فى الاسلام بالشورى تمحيصاً للحقائق ، ودرءا للأباطيل ، وحباً للحق وخضوعاً له .

وقد جاء الرسول صلى الله عليه وسلم بالحق المبين ، وأوجب على المسلمين أن يتقبلوا ما جاء به من عند الله من غير عناد ولا معصية ؛ ليكونوا مؤمنين حقاً كما قال تعالى :

« وَمَنْ يَعْصِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلاً مُبِيناً » .

فالامتناع عن قبول الحق نهاية الخسران والضلال . كما أن حب الحق والخضوعَ له من أكبر أركان الدين .

الاستقلال بالرأى

معنى الاستقلال بالرأى أن يُعوِّلَ الشخص على نفسه فى فهم الحقائق ودراستها دراسة حقة ، وتمحيصها تمحيصاً دقيقاً ، حتى يصل إلى نتيجة مرضية مقبولة . وأن يعتمد على تفكيره الخاص فيما يَعْرِضُ له من الأمور بقدر المستطاع .

والذى يتقبل آراء غيره كما هى من غير بحث فيها أو تنقيب ، ويأخذ كل ما وصل إليه الناس من الآراء أخذاً من غير روية أو تدبر — فليس بمستقل فى فكره ، بل يعتبر مقلِّداً تقليداً أعمى . ومثل ذلك من إذا كان فى جماعة يتباحثون فى أمر هام ، ويُقَلِّبون الموضوع على وجهات مختلفة ليصلوا من ذلك إلى رأى مُمَحَّص — لم يجرؤ أن يبدى رأياً صريحاً ، أو فكرة واضحة : إما جهلا منه ، وإما خوفاً من الوقوع فى الخطأ والزلل . وهو مع ذلك يتبعهم فيما يقولون ويفكرون كالببغاء : لا يعى سوى ترديد ألفاظ غير مفهومة . فمثل هذا يعد وَكِلاً غير مستقل فى آرائه وأفكاره ، ويمكن نعته بأنه إمَّعَة يتابع هذا وذاك ، ويؤمِّن على أقوال سواه بدون تفقُّهٍ أو دراية .

وإن تعويل الإنسان على أفكار غيره مضيع لشخصيته ، وقاتل لأفكاره ، ومعطل لقواه العقلية ، ومُؤَدٍّ إلى التقهقر والتأخر والجمود عند حد محدود . فكثير من مظاهرنا ومرافقنا واقف لا تقدم فيه ولا نهوض بسبب عدم الاستقلال الفكرى ، وبسبب تقليدنا لما فعل الآباء . فإذا فتشت عن مصنوعاتنا الحالية وجدتها صورة للمصنوعات التى قام بها المصريون من أزمان ماضية : لم يدخلها تحسين كبير ، ولا إصلاح يستحق الذكر . وكثير من مؤلفاتنا ليست نتيجة للاطلاع الواسع الشخصى ، ولا ثمرة للبحث الذاتى ، ولا تعبر عن رأى مستقل ناضج ، بل هى مشتقة فى الغالب من مصادر مختلفة من غير تغيير كبير ، أو زيادة فى حقائقها — وكل ذلك يرجع إلى أن روح الاستقلال فى الرأى والفكر خامدة هامدة ، وأن المفكرين قليلون ، والمتواكلين كثيرون .

وللاستقلال الفكرى آثار صالحة ، فإن ما نراه من الاختراع والتقدم والمدنية الحديثة ، وما نشاهده من القصور العالية ، والمراكب الضخمة ، والسيارات الجوالة ، والطيارات التى تقطع أجواز الفضاء ، والسفن السابحات فى الماء — إنما هو من آثار الاستقلال الفكرى ، ولولاه لبقى الإنسان كما بدأ : يأكل مما يصيب من نبات الأرض ، وما يسطو عليه من حيوان البر ، ويأوى إلي الكهوف والمغاور يتخذها مساكن ، ويلتمس أوراق الأشجار المتناثرة يَخْصِفُهَا مَلْبَساً .

فالاستقلال فى الرأى مفيد وضرورى للزارع فى مزرعته ، والتاجر فى متجره ، والصبى فى مكتبه ، ولكل فرد وطائفة وأمة . اُنظر إلى قادة الفكر والكاشفين الذين عولوا على آرائهم وتفكيرهم فبنوا للعالم سعادة ومجداً

ورفاهية . وحسبك أن ترى رجلاً عبقرياً مستقلاً في رأيه مثل «إديسون» الذى يلقب بملك العلم ، والذى ملأ الدنيا بمخترعاته : كالحاكى ، والخيالة ، والمصباح الكهربائى ، والمراكب الكهربائية ، إلى أمثال ذلك مما أربى على سبعمائة اختراع — حسبك أن تنظر إلى مثل هذا لتعرف ثمرة الاستقلال فى الرأى ، والاعتمادِ على النفس والفكر . وإذا ضَعُفَت روح الاستقلال فى الأمة فإنها تحاكي غيرها فى أساليب حياتها ، وسائر مميزاتها ، وفى هذا فناؤها . وتلك حال الكثير من الأمم الضعيفة المغلوبة على أمرها . والفرد الذى يحاكى غيره من غير تبصر ولا إدراك تضعف نفسه ، ويصير عضواً غير نافع بين أفراد أمته ، وليست الحياة للضعاف المتواكلين .

وإنما رجل الدنيا وواحدُها   من لا يعوّل فى الدنيا على رجل

على أن تكوين الملكات العقلية والخلقية إنما يكون بالتعب والصبر وطول المرانة والبحث العميق فى العلوم والمعارف ؛ ليستخلص الإنسان منها لنفسه ما يكون موافقاً لآرائه ، وممتزجاً مع روحه ، وهنا يزداد قوة وتفكيراً وعلماً صحيحاً . أما الكسالى الضعفاء المتواكلون فلا تتكون لديهم الملكات ، بل تموت مواهبهم ، ويبقون مدى حياتهم متواكلين على غيرهم ؛ فتضعف عزائمهم ، ويحرمون الثقافة العقلية ، والاضطلاع بأعباء الحياة ، ويعيشون فى جهالة جهلاء ، وطَخْيَةٍ عمياء ، ليس لهم ثقة بالنفس ، ولا أثر فى الحياة .

ومما يساعد على نمو ملكة الاستقلال فى نفس الإنسان اعتمادُهُ على نفسه فى مزاولة الأعمال والواجبات المفروضة عليه ، والمعلمون فى المدارس من أكبر البواعث على إحياء الاستقلال فى نفوس الناشئين ، فعليهم أن

يمنعوهم من حفظ الدروس حفظاً آلياً من غير تعقل ولا تفكر ، كما يجب أن يمنعوهم من مساعدة بعضهم بعضاً فى حل المسائل العلمية التى تحتاج إلى بحث وروية ، وينموا فيهم روح الاعتماد على النفس منذ الصغر ؛ ليشعر الطلاب بأن لهم كرامة ورأياً محترماً ؛ فيستأصل ما فى نفوسهم من الضعف شيئاً فشيئاً ويعتادوا التفكير المستقل ، وكلُّ شىء يجود بالتمرين . ومتى مَرَنَ الفكر على النظر فى الأمور ، واستخلاص صحيحها من فاسدها كملت فيه القدرة على ذلك .

وقد جاء الدين الإسلامى حاثًّا على وجوب استقلال الارادة واستقلال الفكر ، وبهما كملت الإنسانية . وما المدنية فى أوروبة إلا ثمرة من ثمرات ما دعا إليه الدين الإسلامى من ذلك ؛ فقد رفع الإسلام ما كان قد وضعه رؤساء الأديان من الحجر على عقول المتدينين فى فهم الكتب السماوية ، إذ كانوا قد فرضوا على العامة أن يقرءوا قطعاً من تلك الكتب لكن على شريطة ألاّ يفهموها ، وألاّ يُعملوا الفكر فيها بدعوى أنها أمور دينية لايجوز أن تكون موضعاً للبحث والنظر . وقد تغالوا فى ذلك حتى لقد حرموا أنفسهم هذه الميزة وهى ميزة الفهم والبحث ، فجاء القرآن يلبسهم عار ما فعلوا . قال الله تعالى :

« مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا * بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ ، وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » .

ومعنى عدم حملهم للتوراة بعد ما حُمِّلوها وهى بين أيديهم — أنهم لم يعرفوا منها إلا الألفاظ ، ولم يتوجهوا إلى دَرْك ما فيها من الشرائع

والأحكام ، فعَمِيَتْ عليهم طرق الاهتداء بها ، وختم الله على سمعهم وجعل على بصرهم غِشَاوة ، فحق عليهم ذلك المثل الذى أظهرهم فى صورة لا يليق بنفس بشرية أن تظهر فيها ، وهو مثل الحمار الذى يحمل الكتب ولا يستفيد من حملها إلا العناء والتعب وقَصْمَ الظهر . وما أشنع شأن قومٍ انعكست بهم الآية ، وانقلبت بهم الحال ؛ فما ينبغى أن يكون سبباً فى سعادتهم وهو الشريعة ، جعلوه سبباً فى شقائهم بالجهل والغباوة .

وبهذا التقريع ونحوه ، وبالدعوة العامة إلى الفهم والتفقه واليقين — فرض الاسلام على كل مؤمن أن يأخذ حَظَّه من علم ما أودع الله فى كتابه ، وما قرَّرَ من شرعه ، ودعا الناس جميعاً إلى إعمال الفكر والرويَّة والبحث والاستنباط ، ونعَى على الذين وقفوا عند حدود ما ألفوا ، وقالوا :

« إِنَّا وَجَدْنَا ءَآبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ، وَإِنَّا عَلَى ءَآثَـٰرِهِمْ مُقْتَدُونَ » .

حب العمل ومقت البطالة

إن العملَ روحُ الحياة ، وأساس العمران ، وسبيلُ الكمال ، ومنبع الثروة والمال . وهو من ضروريات الحياة فلولاه ما رأيت قصوراً شاهقة ، ولا حقولاً ناضرة ، ولا حدائق يانعة ، تُؤْتِى أُكلها كل حين بإذن ربها ، وتبعث إلينا بأريج أزهارها ، وتمدنا بفاكهة كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة . ولولاه ما كانت طائرات تحلّق فى الجو ، ولا فُلْكٌ تَمْخُر عُبَابَ اليمّ ، ولا عرفنا البخار وآثاره ، ولا الكهرباء وعجائبها ، ولا حصلنا على هذه النعم الكثيرة من مأكل ومشرب ، ومسكن وملبس ، ولكان كل شىء على حاله منذ ابتدأ الله خلقه .

والعاملون فى كل زمان ومكان هم الذين شيّدوا صروح التمدين ، وأقاموا معالم الحضارة ، ومدوا ظلها الوارفَ فشملت كل شىء فى الحياة . ولم يخلق الله الإنسان عبثاً فى هذه الحياة فيلهو ، بل خلقه وكلفه العمل ليَعْمُرَ الدنيا وينتفع بما بَطَن منها وما ظهر من كنوز ودفائن وخيرات . قال تعالى : « فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ » . وقال : « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانْتَشِرُوا فِى الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ » . وقال صلى الله عليه وسلم : « لَأَنْ يأخُذَ أحدُكم حبلاً ثم يغدوَ إلى الجبل فيحتطبَ فيبيعَ فيأكلَ ويتصدقَ — خيرٌ من أن يسأل الناس » .

وقال عمر بن الخطاب : « لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول : اللهم ارزقنى ؛ فقد علم أن السماء لا تُمطر ذهباً ولا فضة ، ولكن الله يرزق الناس بعضَهم من بعض » . فالذى يحاول أن يدرك حظه من الحياة دون عمل جاهلٌ مفتون :

ومَنْ أراد العلا عَفْواً بلا تعب   قضى ولم يَقْضِ مِنْ إدْرَاكها وَطَرَا
لا بد للشَّهْد من نحل يُمَنِّعُهُ   لا يَجْتَنِى النفعَ مَنْ لم يَحْمِلِ الضررا

ولا يكون الاجتهاد بإرهاق النفس ، وتحميل الجسم فوق طاقته ؛ فهذا مما يؤدى إلى الاضمحلال ، ويعوق عن السير فى طريق الكمال . وإنما يكون بالمواظبة وإتقان العمل ؛ فقد ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم : « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » . وإن الأمة العاملة المُجِدَّةَ النشيطة تتسع رُقْعَةُ مُلكها ، ويَعظم شأنها ، وتَخْفُقُ فى البر والبحر أعلامها ، وتروج تجارتها ، وتنتشر لغتها ، وترى أبناءها منتشرين فى كل بلد وناحية ، وفى مجاهلِ بلاد الله بين الأمم البدوية لطلب العيش وكسب

المال . و بقدر ما تكون عليه الأمة من نشاط وكفاح ، ورغبة فى العمل و إقدام — يكون نصيبهامن خيرالدنيا ونعيمها . وقد أوعد الدين الكسلان المتعطل بأشد الوعيد إذ قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة المَكْفِيُّ الفارغ » ويَعنى « بالمكفى » الذى يكفيه غيرُه ضرورات حياته « وبالفارغ » المتعطل الذى يُخْلِدُ إلى البطالة والكسل .

ومن الحث على العمل قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا صليتم الفجر فلا تناموا عن طلب أرزاقكم » ، وقوله « باكروا الغُدُوَّ فى طلب الرزق والحوائج ؛ فإن الغدو بركة ونجاح » .

وكل أمة أنِفَت من الأعمال ، واستَحْلَتْ طَعْمَ الراحة والبَطالة — أسرع إليها الفناء والاضمحلال . وتغلب عليها غيرها من الأمم العاملة النشيطة : فالرومانيون مثلاً لم يَبِيدوا ويَذْهَبْ سلطانهم إلا حين احتقروا العمل ، وأخلدوا إلى البطالة واللهوِ والترفِ ، حتى كانوا يرون أن الأعمال لا تليق إلا بعبيدهم . ولذا قال صلى الله عليه وسلم فى التحذير من البطالة وسوء نتائجها : « إذا قصر العبد فى العمل ابتلاه الله بالهمِّ » . ولا جرم أن الهموم والأكدار ، والأمانى الباطلة إنما تكون من ذوى البطالة والفراغ . وقال صلى الله عليه وسلم : « أَخْشَى ما خَشِيتُ على أمتى كِبَرُ البطن ، ومداومةُ النوم والكسل » . وكبر البطن كناية عن انتفاخه وامتلائه بالطعام ، وهو مجلبة للكسل والعجز عن متابعة العمل .

فالإسلام عاب القعود عن العمل ، وعاب ما يؤدى إليه من الكسل والإكثار من النوم والأكل ، ولهذا كان من أهم ما تعنى به الحكومات والأمم الراقية الآن مقاومةُ الميلِ إلى الترف والدَّعَةِ بإيجاد الأعمال العامة

النافعة ، وتشجيع الصناعة والتجارة والهجرة إلى البلاد القاصية ، ومكافأة العامل الجد الفائق فى عمله وصناعته وتكريمه ليَحْتَـذِيَهُ غيرُه من العمال والصناع . ولهذا أيضاً أنشئت أندية الرياضة البدنية لتقوية الجسم وتقويمه ، وتمرينه على تحمل مشاق الأعمال . ذلك لأن للفراغ من العمل غير ما تقدم نتائجَ سيئةً ؛ إذ به يتعود الإنسان البلادة ، ويفقد النشاط والصحة وحب العمل ، ويصحب هذا الرضا بالمنزلة الدنيا ، وبذلُ ماء الوجه فى كثير من المواطن للحصول على الكفاف من الرزق . وإن الذين تراهم يتساقطون كالذباب فى الشوارع ، ويأخذون على المارين منافذ القضاء — أكثرهم ممن استعذبوا البطالة ، واستمرءوا الكسل، ورأوا فى العمل مَجْهَدَةً لهم ونَصَباً، فتركوه وآثروا المنزلة الدنيا على حرفة فيها شرف لهم ، وأمانٌ من فقرهم . وأكثر ما يكون ضرر الفراغ من الأعمال إذا صَحِبه الشباب الثائر ، والمال الوافر . هنالك يكون وبالاً على صاحبه وعلى الناس ؛ لجموح بعض القوى وخروجها عن حد الاعتدال بالبَطالة ، ووجود ما يُواتيها من المال والشباب .

إن الشباب والفراغ والجِده   مَفْسـدةٌ للمرء أىُّ مَفْسَده

تفضيل ما فى الآخرة على متاع الدنيا وزينتها

ما خلق الإنسان ليَعْمرَ فى هـذه الحياة ، بل ليعمل العمل الصالح فى حياته القصيرة ويتزود بأحسن زاد ليوم المعاد .

وما الحياة إلا مَيْدَان للابتلاء والاختبار ، فمن جاهد وثابر على الأعمال الطيبة ، وقام بالحقوق والواجبات الدينية والأدبية — فقد فاز فوزاً عظيماً : وأما من طغى وبغى ، وآثر الحيـاة الدنيا على الآخرة — فقد خَسِرَ خسْرَاناً مبيناً . قال تعالى :

« إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا » .

والناس متفاضلون : فمنهم الشقي الذى يضيع زمنه ، وينفق عمره فى العبث واللهو والمجون والترف ، لاهياً عن عبادة ربه ، وعن تكميل نفسه وتحسين حاله ، فينغمس فى لذات الدنيا ونعيمها ومتاعها . حتى إذا دنا منه الأجل وأشرف على الموت — ندم على ما فرّطَ فى جنب الله . ويقول : ياليتنى قدمت لحياتى . ويومئذ لا ينفعه الندم ، ولا تفيده الحسرة ؛ فيخسَر الدنيا والآخرة ، وذلك هو الضلال البعيد .

ومنهم السعيد الذى عرف هذه الحياة وفهم أسرارها ، ووقف على مرماها ، فأخذ نفسه بالعبادة والتقوى والقناعة والزهد والاعتدال فى كل شىء ، فعاش سعيداً مطمئناً ؛ فإذا ما انتهت حياته الأولى استقبل الدار الآخرة بنفس راضية مرضية .

قال الله تعالى « فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ . إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ، عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ » ولذا ذمّ الله الذين يؤثرون الدنيا على الآخرة ، فيلهُون ويسهُون ويطغَوْن ويبغُون ، فقال جل شأنه : « بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى » . وقال تعالى خطاباً لنبيه صلى الله عليه وسلم : « وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ،

وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا ، وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً * » .

وقد انصرفت قلوب المسلمين فى صدر الإسلام عن حب الدنيا وزينتها ، فكانوا مثالاً طيباً للورع والتقوى ، والعفة والصلاح ، وصادق الإيمان بالله وبما أعده للمؤمنين من الثواب الجزيل ، والنعيم الدائم فى الآخرة ، فكانوا من أجل ذلك ذوى نفوس كبيرة ، وقلوب قوية ، وإرادة صادقة : يجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ولا يرهبون الموت ، بل يُقْدِمون عليه إقدامَ الواثق بالله ، المُوقِنِ بثوابه ، ويعملون بكل ما جاءتهم به الشريعة الغراء ، يتقربون بذلك إلى الله ، ويرجون ثوابه ورضاه ، ويجودون فى سبيل ذلك بأموالهم وأنفسهم .

ومن الآيات الكريمة التى تحض على الجهاد ، وتبين أن الدنيا متاع قليل ، وأن الآخرة خير وأبقى — قوله تعالى :

« يٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ؟ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيٰوةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ؟ فَمَا مَتَاعُ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا فِى الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ » . وقال تعالى : « وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ، وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ مُقْتَدِراً * الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا ، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً * » .

فالواجب أن يعيش المرء فى هذه الحياة قانعاً بما قُدِّرَ له ؛ لأن القناعة

هى السعادة ، إذ تغرس الطمأنينة فى النفس فى السراء والضراء ، والشدة والرخاء ، وفى جميع تقلبات الدنيا وتصرفاتها ؛ فهى لا تبقى على حال ، ولا يدوم لها شأن .

ونفسٌ شأنُها اليقينُ ، وحالها الرضا — لا تحزن على ما فات ، ولا تفرح بما هو آت، ولا تدعُ صاحبها يفكر إلا فى عمل صالح، ولا يقول إلا صالحاً؛ فتعيش فى سعادة حقيقية ، ويوم القيامة يقال لها :

« يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً » .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « الزهد فى الدنيا يريح البدن ، والرغبة فيها تكثر الهم والحزن » فلتكن جميع حركاتك وسكناتك لله : بأن تكون مقصورة على عبادته أو على ما يعين عليها ، كاستكمال وسائل المعيشة بالكسب والسعى فى قضاء الحاجة ، فإن ذلك يعين على العبادة .

وليس معنى الزهد أن يُمسك الإنسان عن طيبات الرزق ، وعما أحله الله من الطعام والشراب والزينة . قال تعالى :

«قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ» .

بل معناه ألاّ تَطغَى الدنيا بترفها ولذاتها على المرء فتُعْمى بصيرته ، وتُضل نفسه ، وتبعده عن عبادة ربه ، وتَشْغَله عن الواجبات المفروضة عليه . وأسعدُ الناس من أخذ من الدنيا بِقِسْطٍ معلوم ، وعَمِل فيها لآخرته . قال تعالى :

« وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَـٰكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ، وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا » .

وقال الشاعر يمدح شخصاً معتدلاً فى الحياة :

فلا هو فى الدنيـا مُضيعٌ نصيبه ولا عرَضُ الدنيا عن الدين شاغِلُهْ

فالواجب أن يعمل الإنسان للدارين ليفوز بالحُسْنَيين . قال صلى الله عليه وسلم : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمـل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

وكذلك يجب أن ينتفع الإنسان بما فى الدنيا من حلال الرزق ، وطيب الثمرات ، مع الحذر من بطشها وفتكها ؛ فإنها كالحيـة الرقطـاء : تَنفُثُ السموم وإن لان مَلْمَسُها . وكل ما فيها من لذات فهى عاجلة وفانية ، تستهوى النفوس لأنها تلائم طبيعتها الشهوانيـة ، وقد طُبع الإنسـان على حب العاجل ، وترجيحه على الآجل ، من غـير نظر إلى الأصلح منهما . ولذا قال المتنبى : « والنفس مُولَعَةٌ بحب العـاجل » . وقد أخـذه من قوله تعـالى :

« كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ » . وَقال تعالى : « فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا » .

ولا سبب لذلك إلا أن النفوس جبلت على حُب الشهوات العاجلة ، فهى تتعلق بالمال وتتهالك فى الحصول عليه ، مع أن المال فى أيدى الناس عارية . وقد أوجد الله تعالى أعراضَ الدنيا زاداً للآخرة ، فظنّها الغافلون عَتَاداً ؛ وصَيّرَ الدنيا مُرْتحلاً ومَمَرًّا ، فصَيّرُوها مَوْطِناً ومَقَرًّا ، إلا قليلاً من القـانعين المتقين المؤمنين ، أنزلوها حيث أنزلها الله تعـالى ، وهم الذين وصفهم الله تعالى بقوله : « وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ » ولا شك أن أعراض الدنيا عوَارٍ مُسْتَرَدّةٌ كما قال الشاعر :

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوماً أن تُرَدَّ الودائع

وما منحنا الله المال إلا لننتفع به فى حياتنا ، و ينتفع به غيرنا بعد الممات ، غير أن الإنسان الـكَنُودَ قد اغتر به فظنه هبةً مؤبدة ، فركن إلى الدنيا ، ولم يؤد أمانة الله تعالى ، حتى إذا سُلِب منه المال تبَرَّمَ وَضَجِرَ وَسَخِطَ وَجَزِعَ . و بعضهم وهم الأقلون حَفِظوا ما عُهِدَ به إليهم ، فتناولوا الدنيا عالمين بحقيقتها غير جزعين ، ثم رَدُّوها شاكرين لما نالوه منها ، ومشكورين لأداء الأمانة فيها . و إن ذوى البصيرة ليعرفون أن الثمرة الآجلة — و إن كانت متعبة فى الوصول إليها — خيرٌ من العاجلة ، ولـكن أكثر الأبصار ضعيفة : ترى القريب الفانى ، ولا يمتد نورها إلى مشاهدة البعيد الباقى ، فتتعلق بالدنيا وتنسى الآخرة ، وهذا هو السبب فى التسويف وعدم المبادرة بالعمل الصالح ، وعدم الخوف من الله تعالى ، وذلك هو الضلال البعيد ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم : « الـكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الْأَمَانِيّ » ؛ فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل ، و إن الدار الآخرةَ لهى الحيوان لو كانوا يعلمون .

فالعاقل من يسلك الطريق القويم ؛ فيقوم بالواجب عليه لربه ونفسه وأهله وقومه ، فذلك ينفع لما بعد الموت من بعث وحشر وحساب ونعيم وعقاب ، والحازم من يستعد لهذه المرحلة الطويلة ، ولذلك اليوم المشهود ، ولتلك الدار الباقية ، بنفس يطهرها ، وخلق طيب يتجمل به ، وعمل صالح يقدمه لينتفع به .

« يَوْمَ لَايَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » .

والقرآن مشتمل على كثير فى ذم الدنيا ، وصرف الخَلْق عنها ،

ودعوتهم إلى الآخرة ، بل هو مقصود الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولم يبعثوا إلا لذلك .

قال صلى الله عليه وسلم : « ياعَجَبًا كُلَّ الْعَجَبِ لِلْمُصَدِّقِ بِدَارِ الْخُلُودِ وَهُوَ يَسْعَى لِدَارِ الْغُرُورِ » . وقال صلى الله عليه وسلم فى بعض خطبه : « الْمُؤْمِنُ بَيْنَ مَخَافَتَيْنِ : بَيْنَ أَجَلٍ قَدْ مَضَى لَا يَدْرِى مَا اللهُ صَانِعٌ فِيهِ ، وَأَجَلٍ قَدْ بَقِيَ لَا يَدْرِى مَا اللهُ قَاضٍ فِيهِ . فَلْيَتَزَوَّدِ الْعَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ ، وَمِنْ دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ ، وَمِنْ حَيَاتِهِ لِمَوْتِهِ ، وَمِنْ شَبَابِهِ لِهَرَمِهِ ؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا خُلِقَتْ لَكُمْ ، وَأَنْتُمْ خُلِقْتُمْ لِلْآخِرَةِ . وَالَّذِى نَفْسِي بِيَدِهِ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ مُسْتَعْتَبٍ ، وَلَا بَعْدَ الدُّنْيَا مِنْ دَارٍ إِلَّا الْجَنَّةُ أَو النَّارُ »

وقال عيسى عليه السلام : « لا تتخذوا الدنيا رَبًّا فَتَتَّخِذَكُمْ عبيداً . اكنزوا كنزكم عند من لا يضيعه ؛ فإن صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفة ، وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة » .

وقال لقمان عليه السلام لابنه : « يابنى ، إن الدنيا بحر عميق ، وقد غَرِق فيه ناس كثير ، فلتكن سفينتُكَ فيها تقوى الله عز وجل : حَشْوُها الإيمان بالله ، وشِراعُها التوكلُ على الله ـ لعلك تنجو ، وما أراك إلا ناجيا » .

وقال الفضل : « لو كانت الدنيا من ذهب يَفْنَى ، والآخرة من خَزَف يَبْقَى — لكان ينبغى لنا أن نختار خزفاً يبقى على ذهب يفنى ، فكيف وقد اخترنا خزفاً يفنى على ذهب يبقى ؟ » .

وقيل لإبراهيم بن أدهم : كيف أنت ؟ قال :

نُرَقِّعُ دنيانا بتمزيق ديننا فلا دينُنَا يبقى ولا ما نُرَقِّعُ
فَطُوبَى لعبد آثَرَ اللهَ ربَّه وجاد بدنياه لما يُتَوَقَّعُ

وإن الخلقَ كلّهم — إلا من عصمه الله — كثيراً ما تغرُّهم أحجار الأرض من الذهب والفضة ، فتشغلهم بالحزن والخوف ، وتكون مصدر بلائهم وشقائهم ، وتُعميهم عما ينفعهم بعد الموت ، ولذا قال لقمان لابنه : « يابني ، بع دنياك بآخرتك تربحْهما جميعا ، ولا تبع آخرتك بدنياك تَخسَرْهما جميعا » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بدُنْيَاهُ ، فَآثِرُوا ما يبقَى عَلَى مَا يَفْنَى » .

أبو عبيدة عامر بن الجراح، رضى الله عنه

فى مقـدمة الرجال العظام الذين يُعَدّون من كبار أصحـاب رسول الله صلى الله عليه وسلم — أبو عبيدةَ بنُ الجرَّاحِ ، وخالدُ بن الوَليد ، وعمْرو ابنُ العاص . وفضل هؤلاء معروف ، وذكرهم باق على مدى الدهور .

واسمُ أبى عبيدة عامرُ بنُ عبد الله بنِ الجرّاح بن هلال ، وينتهى نسبه إلى كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ . وقد اشتهر بكنيته ونسبه إلى جده ، فـكان يقال : أبو عبيدة بن الجراح . وكان محترماً فى قومه ، مستشاراً بينهم ، معروفاً بأصالة الرأى والدهاء . وهـذا أهم ما يمكن أن يقال عنـه فى عهد جاهليته قبل الإسلام . وقد جاء فى كتب المؤرخين : « داهيتا قريش : أبو بكر ، وأبو عبيدة بن الجراح » .

إسلامه وصدق إيمانه وتلقيبه بأمين هذه الأمة

كان أبو عبيدة أقدمَ السابقين إلى الإسلام مذ دعاهم داعى الحق إلى التوحيد ، وظهر لهم طريقُ الخلاص من رِبقَةِ التقليد . أسـلمَ أبو عبيدةَ مخلصاً لله فى إسلامه؛ ولذلك كان قوياً فى دينه صادقاً فى حب نبيه ، حتى سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمين هـذه الأمة ؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم : (لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ وَإِنَّ أَمِينَنَا — أَيَّتُهَا الْأُمَّةُ — أَبُو عُبَيْدَةَ ابْنُ الْجَرَّاحِ) . وهذا مقام من الثقة لا يبلغه عند رسول الله إلا من عرف حقيقة دينه ، واستمسك بعروته الوثقى ، وأخلص لله فى السر والعـلانية . وكان متضلعاً فى الشريعة ، وواقفاً على أسرارها ، ولذلك كان كثيرون من

الصحابة يغبطونه على هذه المنزلة العالية ، والمكانة الرفيعة . وجاء أهلُ نجرانَ إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : ابعث معنا رجلاً أميناً : فقال : لأَبْعَثَنَّ إِلَيْكُمْ أَمِيناً حَقَّ أَمِينٍ . (قالها ثلاثاً) ، فَاسْتَشْرَفَ لهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَقَالَ : قُمْ ياأَبَا عُبَيْدَةَ ، وبعث به إليهم . فالسبب فى وصول أبى عبيدة إلى هذه المنزلة ، ونيله الْحُظْوَةَ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اشتهر به من الصدق والإخلاص والطاعة .

ومن أعظم ما يؤثر عنه أن أباه — وكان من المشركين — أخذ يتصدى له فى إحدى الغزوات ، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر أبوه قَصْدَهُ قَتَلَهُ أبو عبيدة ، فأنزل الله تعالى :

« لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ » .

وهذا يدل دلالة صريحة على أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا يجعلون الدين فوق العواطف البشرية ، ويحاربون من حارب الله ورسوله ولو كانوا أقرب الناس إليهم ؛ لتيقنهم أن ثواب ذلك خير وأبقى .

وفاؤه فى صحبته

صحب أبو عبيدة النبىَّ خير صحبة ، وكان كما روى المحدثون من عِلْيَةِ أصحابه ، وأعاظم المقربين منه ، وقد لاقى من أذى قريش فى صحبته ما لاقاه أهل الهجرة ، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وشهد بدراً وَأُحُداً وكلَّ الغزوات الكبرى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية مع المهاجرين ، ثم هاجر إلى المدينة ، وكان

ملازماً لرسول الله ، شديدَ التمسك بأوامره ، حريصاً على رضاه ؛ فاقتبس كثيراً من أخلاقه ، وكان على جانب عظيم من الزهد والرفق والحنوّ على المسلمين ، ولو بقى حياً لولى الخلافة بعد عمر : لما اتصف به من كرم الأخلاق والتقوى والعدل . ولمّا طُعِنَ أميرُ المؤمنين عمرُ بنُ الخطاب ، وتجمعت حوله جماعات المسلمين — قيل له : يا أمير المؤمنين لو استخلفت ؟ فقال : إن تركتكم فقد تركم من هو خير منى ، وإن استخلفتُ فقد استخلف عليكم من هو خير منى ، ولو كان أبو عبيدة حيًّا لاستخلفته ؛ فإن سألنى ربى قلت : استخلفت أمينَ الله وأمين رسوله .

وكان أبو عبيدة رضى الله عنه يُدْعَى القويّ الأمين . ولما شهد موقعة أُحد ثبت مع رسول الله صلي الله عليه وسلم حين تقهقرت صفوف المسلمين لإخلالهم بما رسمته لهم القيادة العليا . فقد روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت أبا بكر يقول : لما كان يومُ أُحد وَرُمِىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجهه حتى دخلت فى وجنتيه حلقتان من المِغْفَرَ (الزرد يتقنع به المتسلح تحت القلنسوة) — أَقْبَلْتُ أسعى إلى رسول الله وإنسان قد أقبل من قبل المشرق يطير طيراناً ، فقلت : اللهم اجعله طاعة ، حتى تَوَافينا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا أبو عبيدة ابنُ الجراح قد بدرنى فقال : أسألك بالله يا أبا بكر إلاّ تَرَكْتَنِى فأَنْزِعُهُ من وجنة رسول الله ، قال أبو بكر : فتركته فأخذ أبو عبيدة بثَنِيَّتِه إحدى حَلْقَتَىِ المِغْفَرَ فنزعها ، وسقط على ظهره وسقطت ثَنِيَّةُ أبى عُبيدة ، ثم أخذ الحلقة الأخرى بثنيته الأخرى فسقطت ، فكان أبو عبيدة فى الناس أثرم (أهتم) ، ولم يُرَ أحدٌ أحسنَ منه هَتَماً .

ولما تمت كلمة الله ، وعمت شِبْهَ جزيرة العرب ، وولى أبو بكر الخلافة — هب نفر من الصحابة الأخيار يَتَوَلَّوْنَ قيادة الجيوش الزاحفة إلى الممالك والأمصار المجاورة لنشر الدعوة ، وإبلاغ الرسالة ، فأحسنوا القيادة وأدَّوُا الأمانة ، حتى أذهلوا جبابرة الأرض من روم وفرس ، وقضَوا على كثير من الممالك بذلك الانقلاب العظيم الذى محا من الوجود دُوَلاً طالما تردّت فى غمرات الوثنية ، وتخبطت فى دياجير الكفر والظلم . ومن هؤلاء أبو عبيدة بن الجراح ؛ فإن أبا بكر رضى الله عنه عقد له لواء ووَجَّهَهُ إلى حِمْصَ ، كما عقد لغيره من الأمراء ألوية أخرى وَوَجَّهَهُمْ إلى جهات مختلفة فى الشام .

مواقفه فى فتح الشام

سار أبو عبيدة ، كما أُمِرَ ، ليغزوَ الروم فى عُقْر دارهم ، ويزعزعَ أركان ملكهم ، وينْذر بِتَقَلُّصِ سلطانهم ، وينشر راية الإسلام على ربوع الشام وما حولها . ولما كان المسلمون فى جهادهم لا يبدءون أهل الكتاب بحرب ، ما لم يدعوهم إلى خصلة من ثلاث : الاسلام ، والجزية والسيف — فقد تراسل الأمراء : عمرو بن العاص ، وأبو عبيدة ، ويزيد بن أبى سُفيان ، وكتبوا إلى هرقل يدعونه إلى واحدة من الثلاث ، وقد كان وقتئذ بالقدس ، فجمع إليه البطارقة وكبار القواد ، وشاورهم فى أمر المسلمين ، وأشار عليهم بصلحهم ، فأبوا عليه إلا الحرب . ولمّا لم يوافقوه على رأيه أخذ يُعِدُّ الجنودَ والعُدَّة ، وأرسل إلى كل أمير جيشاً ، ليَشْغَلَ كل طائفة من المسلمين بطائفة من قومه .

فلما استعرت نار الحرب بين الفريقين كان أكبر الوقائع واقعة اليَرْمُوك ؛ لأن المسلمين تجمعوا فى هذا المكان ، وكتبوا إلى أبى بكر فأمدهم بخالد بن الوليد ، ولما وصل إليهم وجد الأمراء متساندين ، وليس لهم أمير يجمعهم ، فتأمر عليهم ، ثم هاجم جنود الروم ، وجرى بين الفريقين قتال شديد جاء فى أثنائه بريد المدينة وفيه خبر وفاةِ أبى بكر ، وتوليةِ عمر رضى الله عنه الخلافة ، وعزل خالد عن القيادة ، وتأمير أبى عبيدة ابن الجراح بدله ، فكان خير خلف لخير سلف ، وانجلت المعركة عن انهزام الروم شر هزيمة بعد أن قتل منهم عدد عظيم ، وأصيب من المسلمين بين قتيل وجريح زُهَاء ثلاثة آلاف . ولا جرم أن واقعة اليرموك — سواء أكانت أولى وقائع المسلمين مع الروم بالشام أو غير ذلك — كانت آخرَ موقعة قُضِىَ فيها على سلطان الروم فى سوريا ، حتى لم تقم لهم بعدها قائمة ، ولم يستتب لهم فيها أمر .

وليس بعجيب أن يظهرَ من قريش ما ظهر منهم فى اليرموك ؛ وهم سادة العرب ، وحماة الذمار — وإنما العجب لهذا الرهط ينهض بعد الرسول بهذا الأمر نهوضاً يُدْهِشُ ساسة الممالك من الفرس والروم ، ويقضى على كثير من ممالك الأرض بذلك الانقلاب العظيم فى السياسة والدين . ولا ريب أن هدى الإسلام قد نفذ منهم إلى أعماق القلوب ؛ فرأوا طريق السعادة بيّناً ؛ فانصرفوا كل الانصراف إليه ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، ونشروا دينه بين عباده . وممن أبلى بلاء حسناً فى هذه الحروب أمراء الجيوش وعلى رأسهم أبو عبيدة بن الجراح ؛ فكان أول ما قام به من الفتوحات العظيمة فتح دمشق ، ثم سار إلى بقية بلاد الشام فكان النصر

حليفه بسبب قوة الإيمان ، وعدم المبالاة بالحياة فى سبيل إعلاء كلمة الدين ، وحسن معاملة المسلمين ، و إنصاف المظلومين ، وإحقاق الحق ، وما أخـذ المسلمون أنفسهم به من حماية الضعيف ماله ونفسه وعرضـه ، وسائر ما يتصل به .إلى حسن القيادة ، وسداد الرأى ، وصدق العزيمة .

وقد أرسل أبو عبيدة جيوشه تضرب فى الشمال والشرق حتى أتمت فتح سورية ، و بلغت الفرات شرقاً ، وأسيا الصغرى شمالاً .

وأهم ما يؤثر عنه أنه كان متواضعاً زاهداً تقياً عاقلاً رزيناً ، لين الجـانب ، مخفوض الجناح ، عالماً بالشرع ، ذا دراية فى الحرب ، نصوحاً فى خدمة المسلمين . وأحسن شاهد على جميل سيرته قول رسـول الله صلى الله عليه وسلم : (إنه أمين هذه الأمة) كما قدمنا . وأجل شاهد على زهده وتقواه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما قدم إلى الشام تلقاه أمراء الأجناد فقال : أين أخى أبو عبيدة ؟ فقالوا : يأتى الآن . فجاء على ناقة مخطومة بحبل ، فسلم عليه وسار معـه حتى أتى منزله ، فلم يرَ فيه شيئاً إلا سيفه وتُرْسه ورحله ، فقال عمر : أعندكم طعام ؟ فقدم له كسيرات من خبز لا أُدْم فيها . وقال أمير المؤمنين : غيرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة .

بمثل هذه الصفات الطيبة ، من الزهد والتقوى، انتصر المسلمون ، وبهم فليقتد المقتدون ؛ فإن أبا عبيدة القائد العظيم ، والفاتحَ المظفر ، ورافعَ لواء الإسلام ، وأمير الشام — كان يضنّ على نفسه — و يأبى إلا أن يعيش على الـكفاف ، وقد امتلأت نفسه بتقوى الله ، والاخلاص له فى العبادة ، ولا غرو فهو القائل : يأيهـا الناس ، إنى امرؤ من قريش ، وما فيكم من

أحد أحمر أو أسود يفضلني بتقوى الله إلا وَدِدْت أنى فى مِسْلاَخِهِ (جِلْدِهِ ؛ أى وددت أن أكونه)

حسن سِفارته حين الاختلاف فى تولية أبى بكر الخلافة

لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلف المسلمون فيمن يُوَلُّونَه خليفة عليهم . واشتد الخلاف بين المهاجرين والأنصار وكادوا يصْلَوْن نار الفتنة ولكن الله سَلَّم ، وولى أبو بكر خلافة المسلمين . ولما استقامت له الخلافة بين المهاجرين والأنصار بلغه عن على تَلَكُّؤٌ وَشِمَاسٌ ؛ فكَرِهَ أن تمادى الحال ، وتتفرق ذاتُ البين ؛ فدعا أبا عبيدة إليه فى خلوة ، لم يكن معهما فيها إلا عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه ، واتخذه سفيراً بينه و بين على رضى الله عنه ، فقال له : يا أبا عبيدة ، طالما أعز الله بك الإسلام ، وأصلح شأنه على يديك . ولقد كنتَ من رسول الله بالمكان المَحُوط ، والمحلّ المَغْبُوط . قد أردتُك لأمر خَطَرُه مَخُوفٌ ، وإصلاحهُ من أعظم المعروف . واللهَ أسألُ تمامَه بكَ ، ونظامَه على يَدَيك . فَتَأَتَّ لَهُ — أبا عُبيدة — وتلطَّفْ فيه ، وانصح لله عز وجل ولرسولِه صلى الله عليه وسلم ولهذه العصابة .

امضِ إلى عليّ وقل له : البحرُ مَغْرَقَةٌ ، والبر مَفْرَقَةٌ ، والجوّ أكْلَفُ ، والليل أَغْدَفُ . ما هـذا الذى تسوّلُ لك نَفْسُك ، ويُدَوّى به قَلْبُك ، ويَلْتَوى عليه رأيك ، وتكثر عنده صُعَدَاؤك ، ولا يفيض به لسانُك ؟ أدينٌ غيرُ دين الله ؟ أخُلُقٌ غيرُ خُلُق القرآن ؟ أهُدًى غيرُ هُدَى النبى صلى الله عليه وسلم ؟

قل له : إنّك واللهِ جدُّ عارفٍ باستجابتِنا لله عز وجلّ ولرسوله صلى

الله عليه وسلم ، وبخُروجِنا عن أوطاننا وأموالنا وأولادنا وأحبَّتنا هجرةً إلى الله ونُصْرةً لدينه ، في زمان أَنْتَ فيه في كِنِّ الصِّبا وعُنْفُوانِ الشَّبيبة ، غافلٌ عما يُشيب ويريب ، ونحن في أثناء ذلك نُعاني أحوالاً تزيلُ الرَّواسِيَ ، ونُقَاسِي أهْوالاً تُشيب النَّواصِي . وبَعْدُ : فهؤلاء المهاجرون والأنصار عندك ومعكَ — يا عليُّ — في بقعة واحدة ، ودار جامعة . إن استقَالُوني لَكَ ، وأَشَاروا عِنْدِي بك ، فأنا واضعٌ يدي في يدك ، وصائرٌ إلى رأيهم فيك . وإن تَكنِ الأخرى فادخلْ فيما دَخَل فيه المسلمون ، وكُن العونَ على مصالحِهم ؛ فقد أمر الله تعالى بالتعاون على الْبِرِّ والتَّقوى .

قال أبو عبيدة : فلما تأهَّبْتُ للنُّهوض بإبلاغ عليّ هذه الرسالة قال لي عُمَرُ رضي الله عنه : قُلْ لعليّ : نحنُ في نُورِ نُبُوَّةٍ ، وضياءِ رِسالةٍ ، وثمرةِ حكمةٍ ، وعنوانِ نِعْمةٍ ، بين أمةٍ مهديةٍ بالحقّ والصدق ، لها من الله يَدٌ نَاصِرة ، وعين باصرة . أتظن ظنًا — يا عليُّ — أن أبَا بكرٍ وثب على هذا الأمر مُفتَاتًا على الأمة ، خادعًا لها ، أو مُتَسَلِّطًا عليها ؟ لا والله ! سَلاَ عنها فوَلِهَتْ له ، ومالَ عنها فمالَت إليه . نِعمةٌ سَرْبَلَهُ اللهُ جَمالهَا ، ويَدٌ أوجبَ اللهُ عليه شكرَها .

قال أبو عبيدة : فتمشيت مُتَزَمِّلاً أنوء كأنما أَخْطُو على رَأْسِي فرَقًا من الفُرْقَة ؛ حتى وصلت إلى علي رضي الله عنه في خَلاء فأَبْثَثْتُه بَثِّي كُلَّه ، ورفقْتُ به ، فلما سمعها ووعاها قال : نعم يا أبا عبيدة ، أكُلٌّ هذا في أنفسِ القومِ ويُحسون به ؟ قال أبو عبيدة : فقلت : لا جواب لك عندي ، إنما أنا قاضٍ حقّ الدين ، وراتقٌ فَتْقَ المُسْلمين ، وسادٌّ ثُلْمَةَ الأمةِ : يعلم الله ذلك من جُلْجُلانِ قَلْبي وقَرارةِ نفسي .

فقال عليٌّ رضى الله عنه : والله ما كان قعودى فى كِنّ هـذا البيت قصداً للخلاف ، ولا إنكاراً للمعروف ، ولا زرايةً على مُسْلِم . بل لِمَا قَدْ وقَذنى به رسول الله من فِراقه ، وأودعَنى من الحزن لِفَقده ، وإن الشوق إلى اللّحاق به كافٍ عن الطمع فى غَيْرِه . وإنى غاد إلى جماعتكم ، فمبايعٌ صاحبَكم ، وصابرٌ على ما ساءنى وسرَّكم ؛ ليقضى الله أمراً كان مَفعولاً .

قال أبو عبيدة : فعـدت إلى أبى بكر رضى الله عنه فقصصت عليـه القول ، فلما كان صـــباحُ يومئذٍ إذا عليٌّ مُخْتَرِق الجمـاعة إلى أبى بكر رضى الله عنهما ، فبَايعَه وقال خَيْراً ، ووصف جميلاً ، وجلس زَميتاً (حليما وقوراً) ، واسـتأذن للقيام ، فمضى وتبعـه عمر مكرماً له ، فقال عليّ : ارجـع — يا ابا حفص — إلى مجلسك ناقـعَ القلب ، مبرود الغليل ؛ فليس وراء ما سمعت إلا ما يَشُدُّ الأَزْرَ ، ويَحُطُّ الوِزْرَ ، ويَجمعُ الألفة بمشيئةِ اللهِ وحُسنِ توفيقـهِ . قال أبو عبيدة رضي الله عنـه : فانصرف عليٌّ وعمر رضى الله عنهما ، وكان هـذا أصعبَ ما مرَّ عليٍّ بعـد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد بقى أبو عبيدة أميراً على الشام حتى العام الثامنَ عشرَ من الهجرة ، وفيه كانت وفاته بسبب الطاعون الذى تفشى فى البلاد ، فاجتاح السكان ، وفتك بهم فتكا ذريعاً ، ومات به كثير من الأعلام فى ذلك العهد .

توفى رضوان الله عليه وسنه ثمان وخمسون سنة ، وروى أنه لما حضرته الوفاة قال لمن حـوله : إنى موصيكم بوصـية إن قبلتموهـا لم تزالوا بخير : أقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وصـوموا رمضان ، وحُجُّوا واعتمروا ، وتواصَوْا وانصحوا لأمرائـكم ، وإنَّ أميراً لو عُمِّر ألفَ حول ما كان له بُدٌّ

من أن يصير إلى مصرعى هـذا الذى ترون . لقد كتب الله الموت على بنى آدم ؛ فهم ميتون ، وأكيسهم أطوعهم له ، وأعملهم ليوم معـاده ، والسلام عليكم ورحمة الله .

خالد بن الوليـــد ، رضى الله عنه

أنجبت دولة الإسلام من الرجال العظام من أسسوا مجد الدين ورفعوا مناره ، وقضوا بعزائمهم الماضية على دولتى الروم والعجم . ومن أشد هؤلاء الذين يُعَدُّون من الأفذاذ فى الحرب والفتح والسياسية خالدُ بن الوليدِ فاتحُ العراق العربى وقسمٍ من الشام .

وهو خالد بن الوليد بن المغيرةِ القرشىُّ المخزومىُّ. ولد سنةَ خمسٍ وعشرين قبل الهجرة ، وأسرته عريقة فى المجد والشرف والسؤدُد ، ولأبيه المـكانةُ العظمى والـكلمة النافذة فى قومه بنى مخزوم . وكان خالدٌ أحدَ أشراف قريش ، وقائداً عظيما من قواد الحرب . شَهِدَ بعض الوقائع قبل إسـلامه على خيل المشركين ، وكان فى قومِه موصوفاً بالشجاعة مُحَبَّباً فيهم ، موفقاً للنصر ، عارفاً بأصول الحرب ، حائزاً صفاتِ الجندية التى يلازمها فى الغالب خشونة الطبع ، وعنفوان المستبد ، والأخذ بالشدة ، والإسراع إلى المعاقبة .

وقـد بدأ نجمه فى الظهور منذ غزوة أُحُد التى اجتمعت فيهـا قريش ومن أطاعها من القبائل لقتال النبى وأصحابه بالمدينة . وكان خالد على ميمنة المشركين ، فلما التقى الجمعان اشـتد القتال ، وجعل رسـول الله صلى الله عليه وسلم الرُّمَاةَ — وهم خمسون — وراءه ، وانهزم المشركون أولا ، فطمِع الرماة فى الغنيمة ، وفارقوا مكانَهم الذى أمرهم النبى صلى الله عليه وسـلم

ألاَّ يبرحوه . ولما كان خالد رجلَ رأى ودراية وعلم بشئون الحرب وترتيب الجيوش ، دبّر خُطة سديدة للنيل من المسلمين ؛ فجاء مع من معه من المشركين على خَيلهم ، وهاجموا المسلمين من خلفهم ، فهزموهم ، وأصيب رسـول الله صلى الله عليه وسلم بالحجارة حتى وقع ، وأصيبت رَبَاعِيَتُه ، وشُجَّ وجْهُهُ ، وكُلِمَتْ شَفَتَه ، وأشيع أنه قتل ؛ وظن المسلمون أن الخبر صحيح ، فوَهَنُوا . ثم جاءت البشرى بحياته وقد نهض واستوى على صخرة من الجبل .

إسـلامه

أراد الله لخالد الهداية ، وشَرَحَ صدره للإسلام ، فمال إلى الدخول فى دين الله . وكان أخوه الوليـدُ قد سبقه إلى الإسلام ، فـكتب إليـه الـكتاب الآتى :

بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد فإنى لم أرَ أعجبَ من ذهاب رأيك عن الإسلام : ومثلُ الإسلامِ يَجْهَـلُه أحد ؟ وقد سألنى رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقال أين خالدٌ ؟ فقلت : يأتى الله به ، فقـال : ما مِثْلُ خالدٍ يَجْهَلُ الإسلام . فاسْـتَدْرِكْ يا أخى ما فاتَك منه ، فقـد فاتتك مواطن صالحة .

فلما جاءه هـذا الـكتاب اشتد ميله إلى الهـدى ، وَنَشِطَ للخروج ، وعَقَدَ العزم على السفر من مكة فى السنةِ الثامنةِ للهجرة ، قاصداً النبى صلى الله عليه وسـلم . ودعا للسفرِ معه بعضَ أفراد قريش ، ولـكنهم أبوا أن يصاحبوه ، وسرعان ما أمر براحلته ، وأمْعَن فى السـير . ثم التقى بعمرو ابنِ العـاص فى موضع بين مكة والطائف ، فقـال له عمرو : إلى أين

يا أبا سليمان ؟ فقال : أريد الدخول فى الإسلام ، واتباعَ محمد ؛ فإنه لنبيٌّ حَقًّا ، فقال له : وذاكَ الذى أقْدَمنى

ثم قدما المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتقدم خالد وسلم عليه بالنُّبُوَّة ، فرد عليه السلام بوجه طَلْق ، فقال خالد : إنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : الحمد لله الذى هداك . قد كنت أرى لك عقلا ، ورجوتُ ألاَّ يُسْلِمَكَ إلاَّ لخير. ثم قال خالد : يا رسول الله ، قد رأيتَ ما كنتُ أشهدُ من تلك المواطن عليك معانداً عن الحق ، فادع الله يغفر لى . فقال صلى الله عليه وسلم : « الإسلامُ يَجُبُّ ما كان قبله . اللهم اغفر لخالد بن الوليد كلَّ ما أَوْضَعَ فيه من صَدٍّ عن سبيلك » . وقد تأثرت نفس خالد بالإسلام تأثراً زادها قوة ورباطة جأش ، وجعلها تقاتل لنشر لواء الفضيلة ومقاومة الرذيلة .

ثم تقدم عمرو بن العاص ، وعثمان بن أبى طلحة ، وبايعا الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وكان قد قال لأصحابه حينما رأى ثلاثَتَهُم قادمين : رَمَتْكُم مكةُ بأفلاذِ كَبِدِها .

وفاؤه فى صحبته

ما كاد خالد يبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام حتى راح يحارب فى سبيل إعلاء كلمة الله ، ولم يمض على إسلامه شهران حتى شهد غزوة مُؤْتَةَ (وهى قرية من قرى البلقاء فى حدود الشام) إذ كان رسول الله قد أمر بتجهيز جيش مِنْ ثلاثة آلاف من المسلمين لمحاربة الروم فى عُقر دارهم ، وعلى حدود امبراطوريتهم الواسعة . فالتقتْ جموع الروم

والعرب فى مؤتة ، ودارت رحا الحرب بين الفريقين، فاستشهد قائدُ المسلمين زيدُ بنُ حارثة ، فجعفرُ بنُ أبى طالب ، فعبدُ الله بنُ رواحةَ . واشتد الأمر على المسلمين ، وكَلِبَ عليهم العدو ؛ فاتفق المسلمون على اختيار خالد بن الوليد لقيادة الجيش ، فأخذ الراية وقاتل بها قتالا شديداً ، ودافع العدو الذى يفوقه عَدَداً وعُدَدا ، حتى استطاع أن ينجى الجيش ، ويقفِلَ به راجعا إلى المدينة . فجعل بعض المسلمين يعيبون على أفراد الجيش ، ويُعَيِّرُونهم بفرارهم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ليسوا بالفُرَّار ، ولكنهم الكُرار إن شاء الله .

وفى هذه الغزوة سَمَّى رسولُ الله خالداً : سيفا من سيوف الله ، وعد فعله هذا فتحا . ومما لا ريب فيه أنَّ تمكنَ خالدِ بن الوليد من الرجوع بهذا الجيش الصغير ، وتخليصِهِ من براثن العدو الكثير العدد مما يدل على عبقريته العسكرية ، وشجاعته العظيمة ؛ فإنه لم يصل إلى ذلك إلا بعد أن دفع بنفسه إلى صفوف الروم ، وأخذ يضربهم بالسيف بعد السيف ؛ حتى انكسر فى يده سبعة أسياف ، وبسبب ذلك لم يتجاوز قتلى المسلمين اثنى عشر قتيلا ، واستطاعوا الرجوع عن العدو على مهل .

ولما فتحت مكة ، وأذل الله قريشاً لرسوله — وقد كانوا أشد العرب عداوة له ، وإيذاء لأصحابه ، ووقوفاً دون دعوته — أمَرَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم بهدم الأصنام بمكة ، ثم بعث خالدَ بْنَ الوليد إلى العُزَّى [وهى شجرة أو صنم فى بيت خارج مكة وكان يعظمها القرشيون وبنو كنانة] فخرج إليها خالد فى ثلاثين فارساً من أصحابه وهدمها ، وقال :

يا عُزَّ كفرانَكِ لا سبحانَكِ إني رأيتُ اللهَ قد أهانكِ

ثم بعث الرسول خالداً لهدم (وَدّ) فحال بينه و بين هدمه بنو عبد وَدّ و بنو عامر ، فقاتلهم حتى قتلهم ، وهدمه . وأرسله أيضاً سنة عشر إلى بنى الحرْث بن كعب بنجران [وهى مدينة كانت منزلا للنصارى شمالي اليمن] ، وأمره أن يدعُوَهُمْ إلى الإسلام فإن استجابوا أقام فيهم وعلمهم شرائع الإسلام ، و إن أبوا قاتلهم . فخرج خالد حتى قدم عليهم ، فأسلم الناس ودخلوا فيما دعاهم إليه ، فكتب بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولم يزل خالد مدة صحبته يجاهد بين يدى الرسول صلى الله عليه وسلم ، و يكافح أعداءهُ ، و يَحْرِص على رضا النبى صلى الله عليه وسلم حتى تُوُفِّىَ رسول الله ، وكان له من الأثر بعدئذ فى قتال أهل الردّة ، وفتوح البلدان العظيمة — ما خَلَّدَ اسمه ، وجعله من أبطال المسلمين الصناديد .

حسن قيادته الجيش فى الغزوات والفتوح

عرفت مما تقدم أن خالدَ بْنَ الوليد كان مُظفَّرًا فى جميع حروبه وغزواته زمن النبى صلى الله عليه وسلم . وسَبَبُ فوزه يرجع إلى شجاعته و بأسه ، ومهارته فى الفنون الحربية ؛ فقد كان من أمهر القوّاد فى الجاهلية ، كما كان من أعظم الأبطال تدبيراً بعد إسلامه . وكانت له فى الجاهلية الأعِنَّة : أى أنه كان القائد الأعظم لفُرسان قريش فى جميع الحروب والغزوات . وحارب فى الإسلام تحت قيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبدى من معجزات الشجاعة ، وخوارق البسالة — ما دعا الرسولَ صلى الله عليه وسلم إلى أن يسميه « سيف الله » فانتشر الإسلام بفضل انتصاراته فى جميع أنحاء جزيرة العرب تقريباً .

ولما توفى الرسول سنة إحدى عشرة من الهجرة ارتد ناس من الأعراب عن الإسلام وامتنعوا عن أداء الزكاة ، وقالوا : لو كان محمداً نبياً لما مات ! واتبع فريق منهم بعض المتنبئين الكاذبين ، فصمم أبو بكر على محاربتهم جميعاً بكل ما لديه من عزيمة وقوة حتى يعودوا إلى دينهم ، فعقد أَحَدَ عَشَرَ لواء لأَحَدَ عَشَرَ قائداً ، وخص كل قائد بناحية لقتال من فيها : فخص سيف الله خالدَ بْنَ الوليدِ بطُلَيحة الأسدى — وكان قد ادعى النبوة — فاذا فرغ منه قصد إلى مالكِ بن نُوَيْرَةَ بالبِطَاح [مكان لماء فى ديار بنى أَسَد] . وفى إرسال أبى بكر الصديق خالداً إلى رجلين دون غيره من القواد ما يدلك على ثقة الخليفة بجرأة خالد وكفايته ، وأنه غالب أعداء المسلمين ، ومعيد الأمن إلى نصابه فى الجزيرة وحول المدينة

وقد تمكن خالدٌ وعشرةٌ من قواد المسلمين من التنكيل بأعداء الدين ، وإطفاء نار الفتنة ، وإخماد ثورة المرتدين ، ورفع رايات الإسلام فى طول الجزيرة وعرضها ؛ فدانت الأمة العربية كلها عند ذلك للخلافة الإسلامية . وهو عمل جليل ، يحفظه التاريخ للصديق ولقواده العظام ، وبخاصة خالدُ بنُ الوليد : الذى راح يقتحم منابع الكفر ومعدن الفساد ، وأشد المرتدين خطراً وأمضاهم سلاحاً ، فسحقهم فى أيام قلائل . وإنها لبطولة تدل على ما كان يتمتع به خالد من براعة فى قيادة الجيوش وتنظيم المعارك ، واختيار الزمن الملائم لها ، والمكان المناسب لخوض غمارها

فتحه العراق وحروبه فيه

كان يجاور بلادَ العرب فى ذلك الحين مملكةَ الفرس فى الشرق ، ومملكةُ الروم فى الشمال ، فانتدب أبو بكر رضى الله عنه سيفَ الله خالدَ ابنَ الوليد ؛ ليضع أساس الدين القويم بالبلاد الفارسية ، وَأمره بالتوجه إلى العراق فى بدء المحرم من السنة الثانية عشرة من الهجرة ؛ لما يعهده فيه من القدرة والكياسة وحسن التدبير ، فقصد بجيشه ثغر الحفير [وهو موضع قرب الأُبُـلَّة] ، وكان صاحبُه من عظماء الفرس ، واسمه هُرْمز : تُبْغِضُه العرب ، وَتَنْقِمُ عليه كثرة غزواته فيهم . فكتَبَ خالدٌ إليه كتابَ إنذار يقول فيه :

أما بعد ، فأَسْلِمْ تَسْلَمْ ، أو اعتقد لك ولقومك الذمة ، وأقرر بالجزية وإلا فلا تلومن إلا نفسك ؛ فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة .

فلما وصل إليه هذا الكتابِ جمع الجموع من الفرس ، واستعد لقتال المسلمين . ولما التقى الجيشان برز هرمز لخالد راجلاً ، فاحتضنه خالد وقتله وانهزم المشركون . وكان هذا الانتصار فاتحةَ خيرٍ للمسلمين ، وشرٍّ على الفرس المنهزمين ؛ فإن خبر هذه الهزيمة لما اتصل بملك الفرس ، أردشير ، أرسل جيوشاً أخرى يقودها أعظم قوادهم ، ويتلو بعضها بعضاً ، فجعل الله كلمته هى العليا ، وأعزَّ جنده ، وهزم الفرس هزيمة منكرة فولّوا الأدبار بعد أن قتل منهم من قتل :

واستمر خالد فى فتوحاته : ينتقل من نصر إلى نصر ؛ حتى فتح الحيرة

بمهارته وذكائه ، وسار إلى غيرها ، فلم تقف فى طريقه عقبة إلا تغلب عليها حتى أتم فتح العراق .

والسبب فى هذه الانتصارات الباهرة يَرجع إلى قوة إيمان المجاهدين وفشو الظلم والعسف فى الأمبراطوريتين : الفارسية والرومانيـة الشرقية ، وبراعة قواد العرب ومقدرتهم وكفايتهم الممتازة . ولعل خالداً يقف وحده بين جميع القواد : فلا يماثله أحد منهم فيما كان يَنْعَم به من عبقرية ، وحسن تصرف ولباقة ، وتدبير لشئون الحرب ، وترتيب للمقاتلة ؛ حتى قال فيـه أبو بكر : (عجزت النساء أن يلدن مثل خالد) .

سفره إلى الشام لمحـــاربة الروم

كان جنود المسلمين قد اجتمعوا فى اليرموك بالشام ، فأرسل أبو بكر رضى الله عنه إلى خالد : يأمره بالتوجه إلى الشام لمعاونتهم فيها .

لم يَرُقْ خالداً هذا النقل المفاجىء ، وكان يفضل أَنْ يَبْقَى فى العراق ليُتم فتحه ، غير أنه — وهو جندى مطيع — امتثل الأمر فوراً ، وغادر ساحة العراق بشطر من المجـاهدين الأبرار إلى الشام ، واتخـذ طريقه فى المفازة مع خطر المسـير فيها لفقد المـاء منها ، ولـكنه احتاط لهذا الأمر ، فـكلف كل من كان معـه أن يأخذوا معهم المـاء ، وأن يُعطشوا الإبل ثم يسقوها ويشدوا مشافرها لئلا تجتر ، ولم يكن معـه من الأدلاء سوى رافع بنِ عُمَـيرة الطائى ، وكان قد سلك هـذه المفازة مرة واحدة وهو صغير السن .

سار بالجيش فى هذا الطريق الموحش حتى إذا مضى يومان ، وخاف

العطش على الناس والخيل — نحر الإبل التي كان رواها ، واستخرج ما في بطونها من ماء ، فسقى الناس والخيل ومضى . فلما كان في الليلة الرابعة قال رافع : انظروا هل ترون على مدى البصر سِدْراً ؟ (والسدر شجر النبق)، فإن رأيتموها وإلا فهو الهلاك ، فنظر الناس فرأوا السدر فأخبروه فكبروا جميعاً ، فقال خالد :

عِند الصَّباحِ يَحْمَدُ القومُ السُّرى وتَنْجَلِي عنهم غيـاباتُ الْـكَرى

ولما وصل إلى جيش المسلمين رأى أن كل قائد يقاتل مَنْ بإزائه من الأعداء ، فأدرك خالد أن هذا القتال لا يجدى نفعا ما دامت كل فرقة من الجيش لها أمير ؛ فجمع الأمراء وخطبهم ، وأشار بأن يُؤَمَّرَ على الجيش كلِّه أميرٌ واحد ، وأن يتعاوروا الإمارة حتى يُؤَمَّرُوا كلُّهم ، وأن يؤمر هو في اليوم الأول ، فقبلوا مشورته . فرتب الجيشَ على نحو يضمن النجاح : جعل القلب قسما وأقام فيه أبا عبيدةَ بْنَ الجراح ، وجعل الميمنة قسما وجعل عليه عَمْرَو بنَ العاص ، وجعل الميسرة كذلك وأقام عليها يزيدَ بْنَ أبي سفيان . ثم ابتدأ القتال ، والتحم الفريقان ، وتطارد الفرسان ، وأظهر خالد عجائب الشجاعةِ والحميةِ الإسلاميـة ، وأظهر الروم من البسالة ورباطة الجأش وقوة الصبر على الحرب ما كاد يُزِيل المسلمين عن مواقفهم ، فنهض سيدنا خالد بالقلب ، وقاتل هو وشجعان المسـلمين قتالا عظيما حتى دحروا الروم ، وتم النصر للمسلمين ؛ بعد أن أصيب منهم عدد غير قليل .

صدق ولائه وطاعته للخليفة

كان خالدُ بْنُ الوليد شـديدَ الولاء والوفاء للخليفة ، وكان مثال الشجاعة والبسالة والبأس ، وحسنِ التدبير وقوة العزيمة ، والاخلاصِ لله

والمسلمين ، فبينما كان المسلمون فى ذلك اليوم المشهود — يوم اليرموك — فى أشد حالات الحرب ، واشتداد الطعن والضرب ، وسيف الله خالدُ يفتح الفتوح ، ويرفع أعلام الاسلام ، وينكس أعلام الروم ، ويهتف المسلمون به من أعماق قلوبهم ، ويشيرون إليه بالبنان — إذ جاء البريد من المدينة يَنْعَى أبا بكر ، ويخبر باستخلاف عمرَ بنِ الخطاب ، ومعه أمر بعزل خالدٍ عن إمارة الجيش ، وتوليــة أبي عُبَيْدَةَ بْنِ الجراح قائداً عاماً مكانه . فلم يُذِعْ أبو عبيدة الكتاب لئلا تَهِنَ قوة الجيش ، حتى إذا انتهت الموقعة بالنصر أعْلَمَ به خالداً ، فسلم عليه بالإمارة ، وأصبح جنـدياً من الجنود : لا يرى فخراً أعظم من أداء واجبه حرصاً على اتحاد كلمة المسلمين و إعلاء شأنهم، وهذا سر من أسرار عظمة الإسلام ، وقوة نفوس المسلمين .

وقد روى أن عمرَ بْنَ الخطاب استدعاه بعد عزله إلى المدينة ، فقال له عمر : ماعزلتك لِريبــة فيك ؛ ولــكن افتتن بك النــاس ؛ فخفت أن تفتتن بالناس . وهذا مثل رائع من الأمثلة التى تدل على صدق خالد ، وقوة إيمانه ، وحسن طاعتــه للخليفه ، و إنكاره لذاته ، وتضحيته بمصلحته فى سبيل مصلحة الدين والمسلمين .

وقَلَّ أن يجود الزمان بقائد كخالد : يُوَفَّقُ إلى النصر فى جميع وقائعه؛ فإن التاريخ لم ينبئنا بانخذاله فى موقعة واحدة ؛ فقـد فاز على أهل الردة ، وانتصر فى العراق والشـام ، ودوخ مملــكتى الفرس والروم . ولا غرابة فى ذلك ؛ فقد كان رضى الله عنه دائمَ اليقظةِ ، مراقباً لحركات العدو ، يفترص الفرص ، ويســدد سهمَ الفـكر إلي المقصد البعيـد ؛ فلا يخطئ مرماه . وحق لقائدٍ مثلِهِ أن يبقى ذكرُه خالداً على ممر الأيام، وكر الأعوام.

انتهت حياة ذلك القائد العظيم سنة إحدى وعشرين من الهجرة ؛ بعد أن قضى معظمها مجاهداً فاتحاً ؛ وله من العمر ستون سنة ، ودفن بحمص.

ولما حضرته الوفاة قال : لقيت كذا وكذا زحفاً وما فى جسدى شِبْرٌ إلا وفيه ضربةُ سيفٍ ، أو رميةٌ بسهم ، أو طعنةٌ برمح ؛ وهأنذا أموت حتف أنفى كما يموت البعير . ولقد طلبت القتلَ فى مظانه فلم يُقَدَّرْ لى إلا أن أموت على فِراشى — فلا نامت أعين الجبناء .

فقد كان رضى الله عنه يطلب ميتة غير هذه : كان يطلب الاستشهاد فى غمار الوغى ولظى الحرب ؛ فرحم الله خالداً ، وطيّب ثراه ، وأكرم مثواه .

القرآنُ الكريمُ

« الآية الأولى »

قال الله تعالى : « وَهُوَ ٱلَّذِى أَنْشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ * قَالُوٓا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِنْ قَبْلُ، إِنْ هَٰذَا إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * قُلْ لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَآ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ * بَلْ أَتَيْنَٰهُمْ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * » .

(من سورة المؤمنون)

المفـــردات

أنشأ لكم السمع : ابتدأ خلقه على غير مثال سبق .

الأبصار : جمع بصر وهو ما تدرك به المرئيات .

الأفئدة : القلوب . ذرأكم خلقكم و بثكم بطريق التناسل .

اختلاف الليل والنهار : تغايرهما بالزيادة والنقص وتعاقبهما .
مبعوثون : عائدون بعد الموت إلى الحياة . أساطير : أكاذيب .
تذكرون : تفهمون . العرش العظيم : المُلْك الواسع .
الملكوت : المُلك الشامل والتدبير . يجير : يحمى من يشاء
لا يجار عليه : لا يحول أحد بينَه و بين ما يريد .
أنى تُسْحرون : كيف تُخْدعون وتَصْرِفون عقولكم عن الرشد .
سبحان الله عما يصفون : تنزيهاً له و إبعاداً عما نسبوا إليه من الولد والشريك .
الغيب : كل ما غاب وخفى . الشهادة : كل ما حضر وظهر .
تعالى عما يشركون : تسامى عن أن يكون له نظير .

الشـــرح

يرشدنا الله فى هذه الآيات إلى دلائل وحدانيته فى الخلق والإيجاد ، وتصريف الكون ، و إلى آيات قدرته ، و بديع حكمته ؛ حتى يكون إيماننا بَعد النظر والتدبر على يقين ثابت ؛ لاعن تقليد واتباع ؛ فلا يتطرق الشك إلى عقيدتنا ولا يجد إليها سبيلاً .

وفى هذه الآيات بيان فضل الله علينا ، ورحمته بنا : بما أودع فينا من الحواس الدقيقة والأعضاء ذات التركيب العجيب ، والخواص المدهشة . ولولا مشاهداتنا لها وكثرة وقوع أبصارنا عليها ، واستخدامنا لها لعجبنا من صنعها وتركيبها .

فمن ذلك أن خلق لنا جاسة السمع ؛ لندرك بها الأصوات ، ونميز بينها

فيصل إلينا بها كثير من المعلومات بالتخاطب ، وهى تلك الحاسة المكوّنة من عظام غضروفية ذاتِ تعاريج مختلفة : تهدئ الأصواتَ الصاخبة ، وتمنع اصطدام الهواء الحامل للصوت بالجزء الحساس منها ؛ فلا يصل إليها إلا وقد لطف وخفت حدته ، فتدركه الحاسة ويميزه الإنسان بما منح من عقل ، وما حفظ من معلومات سابقة ، ويرتب على إدراكه ما يتطلب من الأعمال . وانظر إلى دقتها فى إدراك جميع الأصوات على اختلافها ، ومعرفة أنواعها وأصحابها ، والتفرقة بين تلك الأنواع والحكم على كل بما يلائمه ويقتضيه .

ومن ذلك حاسة البصر : نُدرك بها المرئيات ، ونُفرق بينها ، ونَعرف بها العدو والصديق ، والذاهب والآئب ، والمقبل والمدبر ؛ فتؤدى إلى العقل أكثر المعلومات التى يحتاج إليها فى تصريف مملكة الجسم ، وتدبير شئونها . ولولاها لاختل كثير من نظم الحياة ، فأصبحت تاعسة مُنغّصة . وقد أودعها الله جل شأنه فى هاتين البؤرتين اللتين فى مقدم الجبهة ، وحاطها بوسائل الحفظ والصيانة ؛ لأنها ليست من حديد ولا صخر ؛ بل من ماء وشحم ، ولذا قال الإمام على كرم الله وجهه : سبحان من أنطق بلحم ، وأسمع بعظم ، وأبصر بشحم .

ومن ذلك أيضاً القلوب التى هى مخزن الأسرار ، ومستودع العلوم والمعارف ، ومكمن الحب والبغض ، والمعرفة واليقين ، والجحود والإنكار : تنطوى تارة على معين من الحنو والشفقة ، والنور والعرفان ؛ وتارة على جحيم من القسوة والغلظة والظلام والكنود ، وهى هي تلك القطعة الصنوبرية من اللحم ، المودعة فى التجويف الأيسر من الصدر ، فلا يمكن فى مجال العقل السليم أن يكون خالقُ هذه الأشياء — ومثلها كثير — عاجزاً

أو ضعيفاً أو متمدداً ؛ ولا يمكن عاقلاً أن يقابل التفضل بها بالجحود والكفران ؛ بل يجب عليه أن يكون لله شاكراً ، ولجميل كرمه حامداً .

وآية أخرى هي أنه جل شأنه خلق النوع الإنسانى الذى به عمارُ الأرض ، واستخراج كنوزها ، وكشف أسرارها ، وبثّه بطريق التناسل فى أرجائها ، ليسعى كل واحد إلى رزقه ، ويعملَ لما يُسِّرَ له ؛ فتتكون الأمم والجماعات ، وتنشأُ المدن ، وتقوم الممالك والدول ، وتتنافس فى ميدان العمل والرقى ، والغلبة والقهر . وهى فى كل طور من هذه الأطوار تُبْرِز من مكنون إبْدَاعِ الخالق فى العالم ما يبهرُ العقول ، ويحير الألباب : من وسائل التعمير أو التدمير ، ومن أساليب الحكمة والسلام ، أو أدوات الخراب والدمار .

خالق هذه المخلوقات كلها سَيُعيدُها إليه بعد فنائها ، ليحاسب الناس على ما أسلفوا ، ويؤاخذهم بما عملوا : فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . وهو لا شك قادر على ذلك : لا يعجزه عن إعادتها شىء ، كما لم يعجزه عن ابتدائها شىء . فواجب على الإنسان أن يَسْتَخْدِمَ تلك الحواس فيما خلقت لأجله ، ويتفكر فى قدرة خالقها ؛ كى يهتدى إلى وحدانيته ، ويعرف مزيد فضله عليه ، ولكن أكثر الناس لا يقومون بما يجب عليهم لله من الحمد والثناء ، ولا يؤدون ما يستحق من الشكر .

والله سبحانه وتعالى هو الذى يهب بعض المخلوقات الحياة فيحس ويدرك ، ويسلبه إياها فيموت ويفنى ، لا شريك له فى ذلك .

وقد جعل من كمال النظام العالمى اختلافَ الليل والنهار فى الطول

والقصر صيفا وشتاء ، وتعاقبُهُمَا على نظام دقيق محكم لا يعتريه اضطراب أو خلل ؛ منذ خلق الله العالم إلى انقضاء ما قدر له من أجل ، ولو استمر النهار دائماً أو الليل كذلك لشقى الناس وما انتظم حالهم ، ولا سعدت حياتهم ، ولنالهم بسبب ذلك ضَنْك شديد . أليس فى ذلك ما يدعو إلى التأمل والتفكر ؟

ولكن قوماً من الكفار لم يسلكوا سبيل التدبر فيما خلق الله ، وراحوا ينكرون بعث الله للخلائق يوم القيامة بعد موتهم ، وقلدوا فى هذا الانكار آباءهم من قبل ، واستبعدوا حصول ذلك بأن الناس بعد موتهم يصيرون تراباً وعظاماً ، فتتفرق أجزاؤهم ، وتندثر معالمهم ، وقد تتداخل أجزاء بعضهم فى أجسام بعض آخر ؛ فأنَّى يكون لها الالتئام والجمع بعد ذلك . وقالوا : إنَّ هذا من خرافات الأقدمين ، وأكاذيب السابقين ، التى قيلت لآبائنا وأجدادنا من قبلنا ، وقد مضت الأجيال ولم يتحقق صدق شىء منها . وغاب عن هؤلاء أن الله الذى خلقها ابتداء ، وأودع فى كل جسم مقوماتِه ووسائلَ بقائه ، وعَلِمَ كل ذلك — لا يخفى عليه منه شىء ؛ فهو قادر على أن يعيد كل جزء إلى مكانه الأصلى ، ثم يحيى تلك الأجسام كما كانت ، وهذا أهون عليه من الابتداء ؛ فأى غرابة حينئذ فى إعادة الخلائق بالبعث كما كانوا ؟

ثم إنه تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يسأل هؤلاء المنكرين تهكماً بعقولهم وإظهاراً لجهالتهم — عمن يملك الأرض وما فيها من الأنواع والأصناف المختلفة : من حيوان ، ونبات ، ومعدن ، ويابس ، وماء . فاذا اعترفوا — وهم لا بد معترفون — بأن مالك ذلك كلِّه هو الله تعالى

لأنه هو الخالق المدبر — فلا مفر من اعترافهم بسعة علمه وتمام حكمته وقدرته ، ومَن كان هذا شأن علمه وقدرته فلا مرية فى قدرته على أن يعيد هذه الخلائق بعد فنائها .

وأمر الله تعالى نبيه أيضاً أن يسألهم عمن خَلَقَ السموات وجَعَلَها طبقات ، وأمسكها بلا عمد ، وأودع فيها الأفلاكَ والكواكب ، وعمن هو صاحب الملك العظيم ، المنفردُ بالتصرف فيه ، ومن بيده تدبيرُ المخلوقات كلها : خَلَقَهَا فأَحْكَمَ خَلْقَهَا ، وسَوّاها فأحسن تسويتها ، وأَلْهَمَ كل صِنفٍ خواصه وأسراره . ومن الذى يعطى من يشاء ما يريد إعطاءه ، ويمنع من يشاء ما يريد منعه ؟ فلا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع : أمره النافذ ، وحكمه لامرد له . سيقولون : إنه هو الله : لا يستطيعون لذلك إنكاراً ؛ لما يرون من أن كل شىء فى الوجود فيه آية تدل على أن الله واحد لا شريك له ، وأنه عالم واسع العلم ، قادر تام القدرة ، حكيم جليل الحكمة ؛ فأين إذن تذهب عقولهم ، ويخدعون عن الرشد والصواب ، فينكروا البعث والنشور ، وهو أقرب منالاً مما يشاهدون ؟ وإذا بطلت تلك الشبه والمعاذير على إمكان البعث ، وعلى انفراد الله وحده بالخلق والتدبير — لم يبق إلا ما جاء به الاسلام وقرره : من وجوب الإيمان بوحدانية الله ، وأن البعث حق لا مرية فيه ، وأن ما سوى ذلك كذب لا يَعتمد على دليل .

هذا إلى أن الله تعالى ليس كسائر الخلق : يحتاج إلى اتخاذ ولديُدْخل السرورَ إلى قلبه ، أو يعينه علي تدبير ملكه ؛ كما هو شأن الولد مع أبيه . ولم يكن مع الله إله آخر قد شاركه فى أعباء هذا العالم ؛ لأن شأن الشريكين أو الشركاء أن يستقل كل واحد بنصيب مما يشتركون فيه ،

ويمتاز بإدارته والتصرف فيه عن باقى الشركاء ، فيبدو لكل واحد أثر خاص فى ملكه : يختلف عن آثار غيره ، وهنا تنشأ أملاك مستقلة لملوك مختلفين ؛ فيحدث بينهم التغالب والتزاحم ، ويبغى كل واحد الاستئثار بما فى يد الآخر كما هو الحال بين ملوك الدنيا ؛ فيختل نظام العالم ، ولا يبقى على هذا الإتقان والإحكام . ولكن شيئاً من ذلك لم يحصل ؛ فوجب أن يكون إلٰهُ العالم واحداً لا شريك له ، منزهاً عما يصفه الكافرون ، وهو الله الواحد الأحد المحيط علمه بكل شىء خَفِىَ عنا أو ظهر ، غاب أو حضر : لا يخفى عليه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء وهو اللطيف الخبير .

« الآية الثانية »

قال الله تعالى : « وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ . إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۞ » (من سورة النساء)

المفـــردات

اعبدوا الله : اخضعوا له وأطيعوه . لا تشركوا به شيئاً : لا تجعلوا له نظيراً .

وبالوالدين إحساناً : اصنعوا كل خير للوالدين . وبذى القربى : الاقارب

اليتامى : جمع يتيم وهو من مات أبوه وتركه صغيراً .

المساكين : جمع مسكين وهو الذى لا مال عنده .

الجار ذى القربى : من جاورك من أقاربك .

الجار الجنب : من جاورك من غير أقاربك .
الصاحب بالجنب : رفيقك فى سفر أو مدرسة أو صناعة .
ابن السبيل : المسافر أو الضيف .
ما ملكت أيمانكم : ما تملكونه من العبيد والإماء .
مختالاً : متكبراً معجباً بنفسه . فخوراً : متباهياً يكثر من ذكر محاسن نفسه .

الشرح

تضمنت هذه الآية جملة من خلال الخير ، وأمهات الفضائل ، ومكارم الأخلاق :

(١) أن يخلص الإنسان لله فى الخضوع والعبادة ، ولا يراقب سواه ، ولا يجعل له شريكا فى طلب المعونة والوقاية من المكروه ؛ لأن الله بيده كل الأمور وهو النافع الضار المعز المذل ، ليس لأحد سواه تصرف فى هذا العالم ، وإذا أراد شيئاً فلا مَرَدَّ له ؛ فمن الكفر والجهل أن يلتجئ الإنسان إلى غيره ، أو يطلب شيئاً من سواه .

(٢) أن يحسن إلى والديه ، ويقوم بحقوقهما من الإنفاق عليهما ، وخدمتهما ، والتأدب فى مخاطبتهما ، ولين القول لهما ، والسعى فى مطالبهما . وقد ذكر الله تعالى الوصية بهما بعد الأمر بتوحيده ؛ لأنهما سببُ وجود الإنسانِ الظاهرىِّ ، وسبب بقائه وحياته : فهما اللذان ولداه ورَبياه وتعهداه بالرعاية والتعليم حتى كبر وصار رجلا يعرف ما له وما عليه . وكم تحملا فى سبيل ذلك من الآلام والصعاب ! وهما أقرب الناس إليه : يخلصان له الحب والشفقة لا يرجوان من وراء ذلك أجراً .

(٣) الإحسان إلى الأقارب ، وبذل المعونة لهم قياماً بواجب القرابة وصلة الرحم ؛ كى يكونوا له أعوانا ومساعدين : يدرءون عنه الشر ، و يردون الأعداء ، ويسعون فى مصلحته

(٤) مساعدة اليتامى . وهم الأطفال الذين فقدوا من كانوا يعطفون عليهم ، و يَبَرُّونهم ، و يسعون فيما يفيدهم ، وهم آباؤهم ؛ فهم فى شدة الحاجة والفاقة . ولقد أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم باليتيم فقال : (أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين) وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى إشارة القرب والجوار .

(٥) الإحسان إلى المساكين ، وهم الفقراء الذين لايجدون قوتهم . وذلك يكون بالتصدق عليهم بما يدفع عنهم غائلة الجوع والعرى ، و إقامة الملاجىء والمستشفيات لذوى العاهات والمرضى ، والمصانع لتعليمهم ما يقيهم بؤس الحياة ، و يخفف عنهم مضار الفاقة ، و يجعلهم نافعين لأنفسهم ووطنهم وذلك يقلل العاطلين من أفراد الأمة ، و يرقى الصناعات ، و يزيد فى ثروة الأمة ، ويقضى على كثير من أسباب الإجرام ؛ فيستتب الأمن ، وتنمو المحبة والمودة بين الناس ، و يزول الحقد والبغض من الصدور .

(٦) أن يساعد جيرانه الأقاربَ والأباعدَ ، و يتفقد أحوالهم ؛ فيعود مرضاهم ، و يواسِىَ فقراءهم ، و يسعى فى جلب ما يسرهم ، وَدَفْعِ ما يسوءهم فإنهم بذلك يكونون له أعوانا وخداما : لا يجد منهم إلا من يبذل حياته فى الدفاع عنه ، والحرص على مصلحته .

(٧) أن يكرم رفيقه فى السفر أو الدراسة أو الصناعة ، و يبذلَ له ما يستطيع من المعونة ، وَيُحْكِمَ روابط الصلة بينهما وَيُنَمِّيَهَا حتى تثمر

صداقة متينة : لا تزيدها الأيام إلا تمكينا . ورب صديق أولى من قريب والصداقة متى تمكنت بين الأصدقاء بالإخلاص والمودّة كانت أكثر نفعاً وأقوى من القرابة أثراً .

(٨) مساعدة المسافر الذى فقد ماله فى الطريق قبل أن يبلغ بلده ؛ فإن ذلك من المروءة والنبل

(٩) الإحسان إلى ما فى ملك الإنسان من الرقيق : بأن يُطْعِمَهُمْ مما يأكل ، ولا يُكلِّفَهُمْ مالا يُطيقون ، ولا يسىء إليهم بقول أو فعل ؛ فإنهم أناس مثله : جعلهم الله مملوكين له ، ولو شاء لجعله مملوكا لهم ، فالشفقة عليهم واجبة ، والرحمة بهم مطلوبة .

(١٠) ثم قال جل شأنه : إن اللهَ لا يُحب من كان مُخْتالاً فخوراً : أى أن المعجب بنفسه ، المتكبر على بنى جنسه ، لا نصيب له من محبة الله وذلك يفيد النهى عن التكبر والعجب والتفاخر بالأحساب والأعمال ، لأن المتكبر يأنف من أقارب به إذا كانوا فقراء ، ومن جيرانه إذا كانوا ضعفاء فلا يحسن عشرتهم . وهذا يوجب مقت الناس وحقدهم ، ويدل على صغر النفس ، ودناءة الطبع .

فهذه جملة من الخصال التى أمر الله بها ، وحث عليها ، لما ينشأ عن التخلق بها من جميل الأثر ، وأطيب الثمر .

« الآية الثالثة »

قال الله تعالى : « لَيْسَ ٱلْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰئِكَةِ

وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّينَ ، وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ ، وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ، وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا ، وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ، أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ * » (من سورة البقرة)

المفـــردات

البر : الإيمان وكل أفعال الخير . تُوَلُّوا : تُوَجِّهُوا .

قِبَلَ المشرق والمغرب : جهة الشرق والغرب .

الكتاب : الكُتُبُ السماوية التى أنزلت على الرسل . آتى : أَعْطَى ،

السائلين : المحتاجين المضطرين . فى الرقاب : فى شراء الأرقاء وعتقهم .

الموفون بعهدهم : المحافظون على مواعيدهم والمنفذون عهودهم .

البأساء : الفقر الضراء : المرض .

حين البأس : عند القتال في سبيل الله وهو الجهاد .

الشـــرح

يظن بعض الجهال أن الإيمانَ والطاعةَ مقصوران على أن يتجه الإنسان جهة القبلة ، ويدعُوَ الله ، أو يصلى ، أو يأتى بأعمال الجوارح الظاهرة دون أن يؤدى ما يوجبه عليه الإيمان الصحيح . ويعتقد أنه متى فعل ذلك استحق اسم المؤمن وما أعده الله من الثواب العظيم والأجر الكبير .

وإنما الإيمان الحقيق ، والطاعة المنجية المقبولة — أن يعتقد الإنسان

اعتقاداً جازماً بوحدانية الله وسائر ما يجب له من صفات الألوهية والكمال وينَزّهَهُ عن صفات النقصان — وأن يؤمن بأن هناك يوماً آخر يبْعثُ الله فيه الناس من قبورهم ، ويحاسِبهُمْ على أعمالهم ؛ فيثيبُ الطائعين المخلصين ، ويعاقِبُ الكافرين والعاصين — ويعتقدَ بوجود الملائكة ، وأنهم خَلْقُ الله شأْنهُم الطاعة ، ومنهم سفراء بين الله ورسله : يبلغونهم ما يريد الله من الكتب والشرائع ، ليعلموها الناس — ويُؤْمِنَ بسائر الكتب السماوية التي نزلت على الأنبياء بما كُلِّفَهُ الناسُ من فعل أو ترك — ويعتقد موقناً بأن الله أرسل الرسل إلى الخلق مبشرين ومنذرين ، ليَهْدُوا الناس إلى طريق الرشاد ، ويجنبوهم سبل الضلال ، ويخرجوهم من ظلام الشرك والجهل إلى نور العلم والتوحيد — ويبذلَ المال وقت الحاجة إليه فى أبواب الخير ونواحى الإحسان ، فيواسى به ذوى قرباه لِيَقِيَهُمْ ذل المسغبة ، وخشونة العيش ، ويعطف به على اليتامى الذين حرموا آباءهم وهم صغار ، ففقدوا القلب الرحيم ، والناصر المعين ، ويخفف بماله عن المساكين آلام الفقر ، ويسعف به من وقع فى ضيق ، أو انقطع به الطريق حتى يبلغ موطنه ، ويدفع ببعضه ضرورة الذين ألجأتهم الحاجة إلى مد يدهم بالسؤال ، ويأخذ بيد من قضى عليه بالرق واحتاج إلى ما يخلصه من ربقة الاستعباد بشرائه وعتقه ، أو دَفْعِ ما اشترطه مولاه لِيُنْعِمَ عليه بالحرية .

ثم يجمع إلى ذلك كله أن يأتى بالصلاة فى أوقاتها ، مستوفية شرائطها بخشوع وخضوع وإخلاص لله عز وجل ، وَيُخْرِجَ ما يجب عليه فى ماله من الزكاة ، ويصرفه فى مصارفه الشرعية ، ليطهر نفسه من دنس الشح والبخل ، ويرفع عن ذوى الحاجة البؤس والفاقة ، ويحرص على الوفاء

بوعـده ، وعلى إنفاذ عقوده : فلا يخلف وعداً ، ولا يدلس فى عقـد ، ولا ينقض عهداً ، ويصبر على ما يصيبه من فقر أو جائحة تأتى على ما يكون له من مال ، كما يصـبر على ما يصيب جسمه من علل تضنى الجسم وتهـد القوى ، ويحتمل كل ذلك راضـياً بقضاء الله ، محتسباً أجره على الله : لا يُظْهِرُ من ذلك ضَجَراً ولا شكوى ، ويقابل أعـداء الله بعزم ثابت ، وقلب قوى ، معتقداً أنه فائز بإحدى الحسنيين : إما النصر ، وإما الشهادة

من اتصف بهذه الصفات كلها كان قد اتخذ لنفسه وقاية من عذاب الله وسخطه ، واستحق منه المغفرة والرضا ، والدرجات العلا .

« الآية الرابعة »

قال الله تعـالى : « لَا يَنْهَـٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَـٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ، وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ * »

(من سورة الممتحنة)

المفـــردات

أن تبروهم : أن تحسنوا إليهم وتُوفُوا بعهودهم .

تُقسطوا إليهم : تنصفوهم وتعدلوا بينهم : ظَاهَرُوا : عاونوا .

أن تَوَلَّوْهُم : أن تعاونوهم وتصاحبوهم .

الشــــرح

توضح لنا هاتان الآيتان مبـدأ من مبادىء الإسلام السامية ، وهو حريةُ العقيدة، والتسامحُ والرفقُ حتى بمن ليسوا مؤمنين، وأن الإسلام لا يمنع المسلمين من مودة الـكافرين ولا البر بهم ؛ فمن كان له قريب كافر أو جار كذلك ، وأراد مصاحبته ، أو بذل المعونة له — فلا يحول الإسلام بينه وبين ذلك . وإذا عقد مسلم عهداً مع كافر وجب عليه الوفاء به. وإذا قضى مسلم بين مسلم وكافر وجب عليه أن يعدل فى قضائه ؛ فلا يظلم الـكافر ولا يفضل عليه مسلماً . كل ذلك متى كان الـكافر مسالما المسلمين ، غير معتد بمحاربتهم ، أو معاونة عدوهم على حربهم ، أو محاولة إخراجهم من ديارهم. وبهذا يتجلى سمو الإسلام ، وحثه على الرفق بالناس ، وعلى العـدل بينهم وبذل المساعدة لهم وإن كانوا مخالفين فى الدين ؛ فليس الإســـلام دين تعصب أو وحشية وقسوة .

أما إذا كان الـكفار معتدين على المسلمين : يشنون عليهم الغارات ، ويسلبونهم مرافقهم ، ويضطهـدونهم ليُجْلُوهم عن بلادهم ، أو كانوا يساعدون أعداءهم عليهم — فلا نصيب لهم فى برّ ولا معونة ، بل يجب أن يُعِدَّ المسلمون لهم كل ما يستطيعون من قوة ، ويقاتلوهم من غير أن تأخذهم فى ذلك شفقة ولا رحمة ، حتى يفْنُوهم أو يأمنوا شرهم ؛ لأنهم يَبْغُون إذلالَ المسلمين ، وإذلالَ دينهم ، والقضاءَ عليهم ، حتى لا يبقى على وجه الأرض منهم أحد أو يعيشوا ضعفاء أذلاء . فالنكوص عن حربهم عجز ، وملاينتهم ومحاسنتهم ضعف وخور ، ولا يليق شيء من هذا بالمسلم ؛ لأنه يجرئهم على الامعان فى الـكيد ، والافتنان فى ضروب الأذى .

فواجب على المسلمين أن يكونوا سِلْماً وأماناً لمن سالمهم ، وذوى بطش بمن حار بهم أو كاد لهم ، وأن يكونوا يقظين : لا يغـترون بزخرف القول من أعدائهم . فمتى فعلوا ذلك عاشوا مرهوبى الجانب فى أمن وعزة . ومن خان دينه ، ووالى عدوّه وعاونه على قومه و بلاده — فقد خالف أمر ربه وظلم نفسه ، واستحق الذلة والهوان ، وكان مأواه جهنم و بئس المصير .

« الآية الخامسة »

قال الله تعالى : « ٱعْلَمُوا أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ، ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ، ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللهِ وَرِضْوَٰنٌ ، وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ۞ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ، وَٱللهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۞ »

(من سورة الحديد)

المفـــردات

لهو : ما يشغل الإنسان عن مصالحه . زينة : زخرف لا بقاء له .

تفاخر : افتخار . التكاثر فى الأموال : التباهى بجمعها .

غيث : مطر . الـكُفَّارُ : الزراع . يهيج : يجف وييبس .

حُطاماً : منكسراً . رضوان : رضا .

الشرح

يغتر كثير من الناس بالدنيا وما فيها ، ويظنون أنهـا ما خلقت إلا لاشباع نفوسهم وشهواتهم من ملذاتها . وما درَوا أنها كرح لهو ولعب : تُتْعب من يسعى للاكثار منها كما يَتْعب اللاعب العابث من غير جدوى ، وتُلهيه عن فضائل الأعمال ، وأن ما فيهـا من وسائل الزينة والترف — كالقصور الشامخة ، والرياش الفاخرة ، والمركبات الفخمة — لا دوام له ، وأن التفاخرَ بين الناس بالمناصب العالية ، والرتب الرفيعة ، والمباهاة بجمع الأموال ، وكثرة الأولاد — إنما هو غرور لا بقاء له . فكم من رجل كان قوي البنية ، ممتلئاً صحة ونشاطاً — أَلَحَّ عليه المرض ، فأنهك قواه ، وأضعف جسمه ؛ حتي أصبح لا يقوى على السير ولا الجلوس . وكم من غنى كان وافر الثراء ، يباهى الناس بكثرة أمواله وأولاده — قد نزلت به النوائب ، وحلت به الكوارث . فأفنت أمواله ، وأتى الموت على أولاده فأضحى فقيراً وحيداً كأن لم يكن شيئاً بالأمس . وهكذا كل مُتَع الدنيا وزخرفها وما يعتريها من تغيير وفناء ؛ فمثلها كمثل مطر : نزل بأرض فأحياها بالنبات الناضر الجميل الذى يأخذ بألباب الزراع ، فلم يكادوا يفرحون به حتى جف ويبس وأصبح هشيما ، فَعَبِثَت به الرياح ، وفرّقته فى كل مكان ، وضاع كل ما أمله الزارعون فيه .

فالواجب ألاّ يغترّ الإنسان بمتاع الدنيا وما فيهـا ، وألا يجعلها غايته ومقصده ، فيُفْنِيَ عمره فى الاكثار منها وجمعها ، فإنهـا سريعة الزوال ، قريبة الاضمحلال ، حقيرة الشأن ، وستكون وبالاً على مبتغيها : يحمل

همومها ، ويشقى فى جمعها ، ثم يتركها بعد موته ويَلْقَى أشــد العذاب فى الآخرة . والعاقل من لا يأخـذ منها إلاَّ ما يُعينه على طاعة ربه ، ويقربه من مغفرته ورضوانه ، ويسارع إلى الخيرات ما استطاع حتى يظفر بعفو الله ورضاه ، ويدخلَ جنته ، فينالَ ما فيها من النعيم الدائم الذى لا يُدْرِكُ العقل كنهه ، ولا يُحيطُ بأنواعه : ممـا لا عينٌ رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطرَ على قلب إنسان . أعدها البارى جل وعلا لمن وفقه للهدى والرشاد فأخلص فى إيمانه بالله ورسله — فضلاً منه وكرماً ، جزاء من ربك عطاء حساباً « فمن شاء اتَّخَذَ إلى ربه مآباً » .

« الآية السادسة »

قال الله تعـالى : « يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَنْ يَـكُونُوا خَـيْرًا مِّنْهُمْ ، وَلَا نِسَآءٌ مِّنْ نِسَآءٍ عَسَىٰٓ أَنْ يَـكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ، وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَـكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْـقَـٰبِ ، بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْـدَ الْإِيمَـٰنِ . وَمَنْ لَّمْ يَـتُبْ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ الظَّـٰلِمُونَ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ ، إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُوا ، وَلَا يَغْتَبْ بَّعْضُـكُم بَعْضًا . أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَـكَرِهْتُمُوهُ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ۞ »

(من سورة الحجرات)

المفردات

يسخر : يستهزئ . لا تلمزوا : لا تذكروا معايب الناس .

لا تنابزوا بالألقاب : لا تنادوا أحداً بما يكره من الأسماء أو الألقاب .

الفُسوق : الكفر والعصيان . الظن : اتهام الناس من غير دليل .

إثم : ذنب ومعصية . لا تجسسوا : لا تبحثوا عن عيوب الناس وما ستروا من أحوالهم .

لا يغتب بعضكم بعضاً : لا يذكره بما يكره .

توّاب : كثير الصفح عن الناس .

الشـــرح

اشتملت هاتان الآيتان على كثير من الآداب الاجتماعية التى يجب على الإنسان التخلق بها وهى :

(١) ألا يستهزئ أحد بأحد من الناس ، و يحقره بالقول ، أو الاشارة باليد أو اللسان أو نحوهما ؛ لأن ذلك يورث البغض فى القلوب ، و يقطع روابط المودة ، وقد يؤدى إلى التشاحن والتعدى على النفس أو المال ، ور بما كان المذموم خيراً عند الله وعند بنى وطنه ممن يذمه .

(٢) ألاّ يذكر أحدٌ معايب غيره فيذيعها بين الناس ، سواء أكانت فى طبيعة خَلْقِهِ : كالعوَر والسواد . أم خُلُقه : كالبخل واللؤم ؛ فإن ذلك يحمل غيره على أن يفتش عن عيو به و يُذيعَها كذلك . و إن لم يجد فيه ما يَعِيبُه اختلق له معايب ونسبها إليه ، واجتهد فى أن يُلْبِسَها ثوب الصدق . حتى يعتقد الناس صحة ما يقول و يتناقلوه ، فتسوء سمعته ، و يَدْنَسَ شرفه .

ومن دعا النـاسَ إلى ذمه ذَمُّوه بالحق و بالبـاطل

(٣) ألا يتعمد نداء غيره أو مخاطبتَهُ بما يَكره من الأسماء أو الألقاب لأن ذلك يُثير الحقد فى الصدور ، و يَفْصِم عرا المحبة والوئام ، ويدعو إلى

المقاطعة والخصام . ورب كلمة من هذا القبيل تثير شراً . والمؤمنون فى حاجة إلى ما يوحد كلمتهم ، وينمى ألفتهم ، ويقضى على عوامل التفريق بينهم ؛ فلا يَجْدُرُ بهم أن يعودوا إلى أعمال الكفر والمعاصى بارتكاب هذه المنكرات بعد أن مَنَّ الله عليهم بالإيمان ، وأمرهم بالتخلق بآدابه الفاضلة ، وخلاله السامية . ومن لم يرجع عما كان من هفوات ، ولم يتب عما فرط منه — فقد ظلم نفسه ، واستحق غضب الجبار القهار .

(٤) ألَّا يَتَّهِمَ غَيْرَه بسوء من غير دليل ؛ لأن هذا يؤدى إلى اتهام الأبرياء ، ورَمى الناس بما ليس فيهم ؛ فيُلَوِّث سمعتهم ويُلصِق بهم ما هم بُرَآء منه ، فَيُزَجُّ البرىء فى السجن ، ويُقَدَّمُ غير المذنب للمحاكمة ، وقد يُحْكم عليه فتتعطل مصالحه ، أو يُقْضى عليه . أما إذا تأكدت من ارتكابه جرماً ، ولم يخالجك شك ؛ فاتهمته — فلا إثم عليك . وكذا إذا شككت فى رجل سيئ السيرة ، فاسد الأخلاق ، غَيْر مبالٍ بارتكاب الآثام ، فاحترست لنفسك ، واتخذت الحيطة والحذر — فذلك هو سوء الظن المحمود .

(٥) ألا يتتبع معايب الناس ، ويبحث عما ستروه من أمورهم ، ويَستقصى أحوالهم ، رغبة منه فى معرفتها ، أو إذاعتها ؛ لأن ذلك تعرض منه لما لا يعنيه ، واشتغال بما لا يثمر إلا الضغينة والبغضاء . ورب شخص له عيوب قد ستره الله ؛ فالبحث عنها إشاعة للمنكر الذى أمر الله بستره . أضف إلى ذلك أن العيب لا يخلو منه إنسان إلا الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام ؛ فاستقصاؤه أحوال الناس ينفرهم منه ، ويدعوهم إلى ذمه وتقصى عيوبه ، وإذاعة منكراته .

غير أن هناك مواضعَ يكون التجسس فيها مفيداً بل مطلوباً . ومن ذلك ما يكون من الحكومة من بث العيون والأرصاد ، وتتبع خطوات المفسدين فى البلاد ، العابثين بالأمن ، والداعين إلى فتنة أو ثورة ، كى يتدارك ولاة الأمور ما يدبِّرُه هؤلاء من كيد ، وما يُبَيِّتُونَ من إجرام ، فيُحبِطوا مكايدهم ، ويحولوا بينهم وبين أغراضها قبلَ أن يستفحل أمرهم ، وتقوى شوكتهم — فيستتب الأمن ، ويطمئن الناس على أموالهم وأرواحهم ، فيعيشوا آمنين هادئين .

ومنه تجسس الحكومة للوقوف على ما تنويه لها دولةٌ معادية : من من تجهيز جيوش أو إعداد معدات حرب ، أو رسم خطط أو نحو ذلك ؛ كى تأخذ لنفسها الحيطة ، وتُعِدَّ العُدَّة ، فلا تُهاجَمَ على غِرة ، ولا تؤخذ فى غفلة . وهذا شأن الأمة اليقظة ، الساهرة على راحة أفرادها وهناءتهم .

(٦) ألاَّ يَذْكُرَ أحدٌ أخاه بما لا يحب ، سواء أكان حاضراً أم غائباً ؛ لأن ذلك يثير النفوس ، ويفصم عرا الألفة ، ويجعل كل واحد عدوًّا للآخر : يكيد له ويسعى فى ضرره ، وإنه لبَشعٌ مستكره : كما يستبشع الإنسان أن يأكل لحم أخيه وهو ميت . وإن الفطرةَ السليمة والنفس المهذبة لتَكْرَهُ ذلك وتستقذره ، وتنفر منه كل النفور .

وكذلك ينبغى أن يبتعد الإنسان عن إساءة الناس بما يكرهون . وكل من ارتكب من هذه الهفوات شيئاً يجب أن يبادر إلى الإقلاع عنه والتوبة منه ، والندَّم على ما فات ، والعزم على ألا يعود إليه . فإنه إن فعل ذلك وجدَ اللهَ واسع المغفرة : يصفح عما كان منه ، ويرحمه فلا يعذبه وهو الغفور الرحيم .

« الآية السابعة »

قال الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ : يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ . ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا . ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ . قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ . قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا ، وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ . انْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ . إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * »

(من سورة الأنعام)

المفـــردات

فلق الله الحب : شقَّه بإخراج النبات منه .

الحي : المتصف بالحياة كالإنسان والنبات

الميت : ما سلبت عنه صفة الحياة الظاهرة كالنطفة والحب والنوى .

أنَّى تؤفكون : كيف تُخْدَعُونَ وتُصْرَفُونَ عن معرفة الله بالنظر فى خلقه .

فالق الإصباح : مُخْرِج الصبح من ظلمة الليـل . سكناً : يستريح الناس فيه .

حُسْباناً : على نظام محكم يسهل به حساب الزمن . فصَّلنا : وضحنا .

أنشأ كم : خلقكم لا على مثال سبق . نفس واحدة : هى آدم .

فمستقر : َفَجَعَلَ كلاًّ منكم فى مكان يقر فيـه أمداً طويلا وهو أصلاب الآباء .

ومستودع : أى جعله فى موضع لا يستقر فيه وهو أرحام الأمهات .

يفقهون : يفهمون . خَضِراً : أخضر . متراكباً : بعضه فوق بعض .

طلعها : كيزانهـا . قنوان : عراجين . دانية : قريبة التناول .

جنات : حدائق .

مشتبهاً : متماثلاً فى اللون والشكل مختلفاً فى الطعم . يَنْعِه : نُضْجِه .

الشـــرح

تضمنت هـذه الآيات كثيراً من كليات الظواهر الطبيعية والأسرار الـكونية : فى النبات والأفلاك والنجوم . وفى بيانهـا حث للناس على التفكر فى عجائب تركيبها وخواصها المختلفة ؛ كى يهديهم ذلك إلى الإيمان بأن لها موجداً واحداً ، كامل القدرة والإرادة ، تام العـلم والحكمة . ومن ذلك : —

(١) شق الحبوب كالقمح والشعير ونحوهما ، ونوى التمر والفواكه . فترى الحبة أو النواة إذا أُلقيت فى أرض رَطبة ، ومر عليها مدة من الزمن أظهر الله من أعلاها شقاً ومن أسفلها شقاً ، فالذى يظهر من أعلاها تخرج

منه الساق التى تصعد فى الهواء ، والذى يظهر فى أسفلها تخرج منه الجذور التى تمتد فى الأرض ، وتصير الحبة أو النواة أداة اتصال بين الجـذور والساق وما تفرع منهـا . فاختصاص بعض الأجزاء بالصعود فى الهواء وبعضها بالغوص فى الأرض — لا بد أن يكون من تدبير حكيم عليم .

هذا إلى أن تلك العروق والجـذور فى منتهى الدقة بحيث لو دلـكها الإنسان بين أصابعه صارت كالماء ، وقد أُوتيت قوةً تَنفُـذُ بهـا فى باطن الأرض الصلبة ؛ فإعطاء تلك الأجسامِ الضعيفة هـذه القوةَ العظيمةَ لا بد أن يكون بتقدير العزيز العليم .

أضف إلى ذلك أن تلك النواة أو الحبة الصغيرة تخرج منها شجرة كبيرة ذات أغصـانٍ وأوراق وأزهار وثمار ، وفى الثمـار قشر ولب ودهن ، وكل واحد من هذه الأشياء يخالف الآخر فى شكله وتركيبه وطعمه وخواصه .

وتجد الفاكهة أنواعاً مختلفة لا حصر لهـا : فمنها ما قشره من الخارج ولبه من الداخل : كالجَوْزِ واللَّوْزِ ، ومنهـا ما هو على العـكس كالمِشْمِشِ والخَوْخِ ، ومنها ما لا قشر له كالتِّين . والعقل السليم لا يصدق أن هـذه الأشياء قد وجدت بذاتها من غير موجد لها ، إذ ليس فيها من قوة الإدراك والتفـكير والإرادة ما يمكنها من حفظِ قوامها ، وتنوُّعِ أشكالها ، فضلاً على إيجاد ذاتها ؛ فلا بد أن يكون ذلك من فعل عالم واسع العلم ، قادر تام القدرة .

وكذلك تجد الإنسان الحىّ العاقلَ ذا الميولِ المختلفةِ والعواطف المتباينة — يولد من النطفة التى لا يظهر فيها أىُّ أثر من آثار الحياة ، وتجد النَّبات النـامىَ الغَضَّ الطرىّ يخرج من الحبة أو البـذرة الجافة الميتـة .

وبالعكس تخرج النطفة من الإنسان ، والحبُّ والبذر من النبات . وكل ذلك بتقدير الله جل شأنه وهو العليم الحكيم .

(٢) يكشف الله ظلمة الليل ، فينبلج نور الصبح ، ويضيء العالم ، ويَخْرُجُ من سكون النوم والهدوء إلى حركة الحياة والعمل . وقد جعل الليل ليسكن فيه الناس ، ويستردُّوا نشاطهم الذى فقدوه فى أثناء النهار بالسعى والكد ، وجعل لكل من الشمس والقمر دورة خاصة منظمة ، ومداراً لا يتحول عنه ، ونظاماً لا يتخلف . ونشأ عن ذلك الليلُ والنهارُ والفصول الأربعة ، فاتخذ الإنسان ذلك معياراً لحساب الأيام والشهور والأعمار وإنجاز الأعمال . فهذه الظواهر المتغايرة : من ظلام إلى نور ، ومن نور إلى ظلام ، ومن حرارة إلى برودة إلى اعتدال إلى غير ذلك — لا يكون منظمها ومقدرها إلا قويًّا عالماً بتفاصيلها ، حكيماً فى تنظيمها وتدبير أمرها .

كذلك جعل النجوم وسائل تهدينا فى ظلام الليل براً وبحراً إلى الجهات المختلفة ، وتعرفنا الأوقاتَ ، والأماكنَ التى نقيم فيها . والآلات الحديثةُ التى تُسْتَخْدَمُ فى ذلك الآن مبنيّة على نظرية الاهتداء بالنجوم . وكل هذه الآثار العظيمة آياتٌ تدل على وحدانية الخالق جل وعلا وقدرته وعلمه .

(٣) خَلَقَ النوع الإنسانى كله من آدم ، وجعله ذكوراً وإناثاً ؛ ليحصل التوالد والتناسل الذى يَعْمُرُ به الكون ، ويظهرُ ما أودعه الله فيه من أسرار وغرائب ، وجعل من أصلاب الذكور مُسْتَقَرًّا للنطفة التى منها الإنسان ، ومن أرحام الإناث مستودعاً تقضى فيه مدة الحمل ، ثم تنفصل بالولادة إنساناً كاملاً تام الخلقة ، أليس فى ذلك دلالةٌ قاطعة على قدرة الخالق؟

(٤) سخر السحب لحمل الأمطار؛ حتى إذا نزلت على الأرض الجافة اليابسة أنبتت نباتاً زاهيا نضراً : ينتج حَبًّا مجتمعاً بعضه فوق بعض : كما يرى فى مُطلِ الذرة وسُنبل القمح والشعير وغيرها ، وجعل للذرة غلافاً ، يحفظ الحرارة اللازمةَ لنضجها ، ويمنع التقاطَ الطيرِ ونحوه لحبوبها ، وجعل فى السنابل أشواكاً حادّة تمنع سقوط الطير عليها ، وأنتج من النخيل كنزاناً قد تدلت منها العراجين تحمل البلح الشهى ليكون فى متناول الآكلين .

وأخرج بالماء حدائق ذاتَ بهجة : فيها من أصناف الفواكه ما يبهر العقول ، ويحير الألباب فى طعومها وألوانها ومنافعها . وقد ذكر الله منها ثلاثة أنواعٍ هي الأعناب والزيتون والرمان : لما اشتمل عليه كلُّ نوع منها من غريب الشكل والطعم والخواص . انظر إلى عناقيد العنب وقد انتظمت حباتها ، وتدلت من الشجر متقاربة الوضع ، مختلفة اللون والحجم ، لذيذة الطعم ، جمّة المنافع . وانظر إلى الرمان وقد غلف الحب بذلك الغلاف الكروى الصلب ، ثم انتظم الحب فى الداخل فى لونه الأحمر البديع ، فتبارك الله رب العالمين .

ثم إنك ترى هذه الفواكه قد تكون متشابهة فى اللون والشكل ، مختلفة فى الطعم واللذة ، وترى الأشجار متقاربة الشبه فى الأوراق والسوق والزهور ، متباينة الثمار تبايناً كلياً . فاختلاف الأشكال والألوان والطعوم لا بد له من سبب . وذلك السبب لا يكون تأثير الطبائع والفصول ؛ لأن هذا التأثير واحد على جميع أنواع النبات ؛ فهو يقتضى التشابه لا الاختلاف ؛ فيجب الاعتقاد بوجود القادر العليم ، الرحمن الرحيم ، المدبر لهذا العالم بإرادته على وفق علمه وحكمته .

وقد أباح لنا المولى الكريم أن نتناول من هذه الأصناف ما نشاء، ونَطْعَمَ ما نريد، متى تمَّ نُضْجُه ويَنْعُهُ، فإنما خَلَقَهُ لمنفعتنا، ولنستدل به على ما يجب له من صفات الكمال.

« الآية الثامنة »

قال الله تعالى : « ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا، وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا، فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ، وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ * يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ، وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ * »

(من سورة البقرة)

المفردات

الربا : كل مال يؤخذ زيادة عن الحق بدون عوض.

يتخبطه : يصرعه.

المس : الجنون. انتهى : اتعظ وكف عن تناول الربا.

سلف : مضى وفات.

يمحق الله الربا : يُذْهِبُ بركته ويهلك المال الذى دخل فيه.

يربى الصدقات : يزيدها ويضاعف ثوابها. كَفَّار : متمسك بالكفر.

أثيم : مستمر على العصيان.

الشـــرح

قد تعتريك ظروف تضطرك إلى أن تطلب من شخص أن يُقرضك مائة جنيه تؤديها إليه بعد سنة ، فيشترط عليك أن تردها إليه مائة جنيه وعشرة جنيهات فهذه العشرة تسمى ربًا ؛ لأنها زيادة عن الحق بدون عوض يقابلها . وقد تضع نقودك فى مصرِف ، فيعطيك أربعة فى المائة زيادة عليها فى كل سنة . فهذه الأربعة الزائدة على كل مائة تسمى ربًا . أو تأخذ من شخص إردبًا من القمح على أن ترده إليه إردبًا ونصف إردب منه ، فنصف الأردب الزائد ربًا ، أو تأخذ منه مائة جنيه لتردها إليه بعد سنة ، فاذا جاء الموعد ولم تقدر على الإيفاء وطلبت منه امتداد الأجل — اشترط عليك فى مقابل ذلك أن تزيده على المائة عشرة . وهذا النوع الأخير يسمى « ربا النسيئة » أى تأخير أجل الوفاء . وهكذا كل زيادة يأخذها الشخص من آخر على ما يستحقه عنده تسمى ربا .

هـذا الضرب من المعاملة حرمه الله سبحانه وتعالى ، ونهى المسلمين عن التعامل به أخذاً أو إعطاء ، أو شهادة عليه ، أو سعياً إلى الحصول عليه ، وجعل من يتناوله يأتى يوم القيامة كالمصروع : يتخبط ذات اليمين وذات الشمال كأن به مسًّا من الجنون ؛ فيُعْرَفُ بين الخلائق بهـذه العلامة ، ويناله الخزى والعذاب الأليم .

ولـكن قوماً يَلْجَئُونَ إلى عصيان الله ومخالفة أوامره ونواهيه ، ويقولون إن العقود التى يدخلها الربا أنواع من المبادلات الماليـة : مَثَلُهَا مَثَلُ البيع . فـكما أن البيع حلال فـكذلك ينبغى أن يكون الربا حلالاً .

ولـكن فاتهم أن البيع مبادلة المبيع بالثمن ، وأن الله تعالى أحَـلَّه لضرورة الحياة التى لا يمكن الاستغناء عنها ؛ حتى يستطيع النـاس تبادل المنافع . ويلزم ذلك الربحُ والانتفاع ؛ فإن البائع مستغن عن المبيع ومحتاج إلى الثمن ، والمشترى على العكس منه ، والبيع لايتم إلا بتراضٍ بين البائع والمشترى .

أما الربا فبأى حق يستحله آخذه ؟ إنه لم يُعْطِ شيئاً كى يستحق تلك الزيادة بدلاً عنه ، بل سَيُرَدُّ إليه دينُه كاملاً ؛ ففى أخذ الربا تحكم المقرض الغنىّ فى المستقرض الفقير وتسلطه عليه ، وذلك يؤدى إلى استئثار الأغنياء بالأموال ، وانعدام عاطفة الشفقة والرحمة بين الناس ، واسـتغلال الأغنياء حاجة الفقراء فى سلب أموالهم من غير حق ، والقليل مع القليل كثير .

أضف إلى ذلك أن أكل الربا يجر إلى حب الدنيا والعمل على الإكثار منها ، وذلك يدعو إلى التجرد من كثير من صفات البر وخلال الإنسانية الطيبة . وحب الدنيا رأس كل خطيئة . وليس لنا بعد أن حكم الله بتحريمه إلا الامتثال لأمره .

ولقد تواردت الحوادث مثبتة مضار الربا الفاحشة ، وعواقبه السيئة : فـكم من ثروات ذهبت إلى أيدى المربين ، وأصبح أهلها فى بؤس وفاقة . وكم من ضِـيَاعٍ تسربت إلى من ليس فى قلوبهم رحمة ولا عاطفة خير من أولئك الذين هم وحوش الانسانية ، وذئاب المدنية . وكم جَرَّأَ الاقتراضُ بالربا أناساً على ارتـكاب أسوإ المنكرات ، وأبشع الجرائم الخلقية وغيرها ؛ حتى ساءت عقباهم ، وكان مآلهم إلى المذلة والضعة والمهانة . سَل المصارف والمحاكم عما يَجْرِى بين جدرانهـا : من مآسٍ خَرَّبت البيوت العامرة ، وفضحت الأُسَرَ العريقة ، وقضت على كثير من بقية الخُلُق الطيب ،

والكرامة والعزة ، حتى صار أكثر أملاكنا العقارية فى أيدى أصحاب المصارف الأجنبية ، وأصبحنا نخدم الأرض ليجنوا هم ثمارها ، وليتمتعوا بخيراتها — وكل ذلك جره الربا والاقتراض.

لهذا كان الشرع حكيما فى تحريمه الربا ، ومبالغته فى الحث على اجتنابه والوعيد الشديد على من يتناوله . فمن عمل بأحكام الله ، وأقلع عما كان يفعله من ذلك قبل التحريم فله ما تناول ؛ لأنه لا تحريم إلا بعد نزول ما يدل عليه . ومن عاد إليه فقد استوجب ما أعده المنتقم الجبار من نار يصلى سعيرها أمداً طويلاً .

وقد بين الله تعالى عاقبة تناول الربا : وهى أنه يَذْهَبُ ببركة المال ، ويَبْتَلِي المتعامل به بأنواع الرزايا : من الأمراض والآفات التى تذهب بالكثير منه ، فيُضْحِي وقد افتقر بعد أن كان يبغى الغنى ، وكذلك يصير مَطْعَناً لمن استولى على أموالهم ، ومُبْغَضاً منهم : يمقتونه ويتمنّوْن له كل مصيبة ، ومتى اشتهر بين الناس بجمع ماله من طريق الربا توجهت إليه الأطماع ، وقصده كل ظالم وسارق ؛ لأنهم يرون أن ما جمعه ليس له فى الحقيقة ، فهو يستحق الحرمان منه .

أما من يتصدق بشىء من ماله فى سبيل إنقاذ الفقراء والمساكين من من غوائل الفاقة ، وإنجائهم من مخالب الجوع والموت — فان الله يتقبل ما يتصدق به ، وينميه له ويجزيه عليه ثواباً مضاعفاً لقاء ما قدم من خدمة مشكورة للبائسين من قومه وعشيرته ؛ فضلاً على ما يناله فى الدنيا من حمد وثناء مترادفَيْن على ألسنة الناس ، وحُبّ ومودة تنطوى عليهما قلوبهم ، ومعونة يبذلونها كلما احتاج إليها ، وانصراف ذى النفوس الشريرة عن التعدى عليه ، أو إلحاق أى ضرر به . والله تعالى يمقت من يكفر به ويتمادى فى اقتراف الآثام .

الأحاديث الشريفة

« الحديث الأول »

قال صلى الله عليه وسلم : « اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ » .

الشـــرح

اشتمل هذا الحديث الشريف على ثلاث فضائل يجنى المتخلق بها من ورائها خيراً كثيراً ، ويتقى أذى وشراً ، ويكفل لنفسه حياة رغدة ، وهى :

(١) مراقبة الله فى السر والعلن ، وفى كل وقت ومكان ؛ فلا يعمل عملاً فى السر يخشى منه فى الجهر ، ولا يقول قولاً يغضب الله جل شأنه تزلفاً لعظيم ، أو انتقاماً من عدو ، ولا يتظاهر أمام الناس بالصلاح والتقوى وهو أشـد خبثاً ومكراً من الشيطان ؛ لأن الله جل شأنه لا يخفى عليه من ذلك شىء ؛ فهو يعاقب المتصف بهذا النفاق والرياء أشد العقاب . أضف إلى ذلك أن هذه الصفة لا تلبث أن تظهر للناس ، ويشتهر أمر المتصف بها فيناله من احتقار الناس وسخريتهم وانصرافهم عنه عنت كبير .

(٢) إذا بدرت من الإنسان سيئة فليُتْبِعْهَا بحسنة : فإن عصى الله بفعل مكروهٍ أو تركِ مطلوبٍ بادر إلى التوبة والاستغفار ، وتلافى بالطاعة ما كان منـه . وإن أساء إلى شخص فى ماله أو كرامته أسرع بالاعتذار إليه ، ورد ما أخذه منه ، وأصلح ما أفسده بإساءته ، وطلب منه الصفح ؛ فإنه إذا فعل ذلك محا الله ما كان منه من ذنب ، وطابت نفس أخيه إليه ،

وزال ما كان فى قلبه من جَفْوة و غل ؛ فصفت النفوس وطهرت من دنس الحقد والبغض .

(٣) أن يخالق الناس بالخلق الحسن ؛ فيَصْدُقَ القول لهم ، ويلين فى مخاطبتهم ، ويَقْبَلَ عذر من اعتذر إليه ، ويصفح عن المسيء ؛ ولا يكون قاسى القلب ، غليظ الكبد ، خشن اللفظ ، سيِّئَ العشرة ؛ فإن ذلك يقرب الناس منه ، ويحببه إليهم ، فتجتمع القلوب إليه ، ويسعد فى حياته ، ويطيب عيشه .

ويرمى هـذا الحديث إلى تربيـة الضمائر وتهذيبها ، وهى تلك القوة الروحية التى أودعها الله الإنسـان لترشده إلى طرق الصواب ، وتحزره من الوقوع فى الخطأ . فإن عصى هذه الأوامر انبرى الضميرُ لإيلامه وتعنيفه ، حتى يثوب إلى رشـده ، ويسلك سبيل الخير والصلاح ؛ وإن تمـادى فى العصيان ضعف الضمير ، وانطفأ نوره ، وأصابه الخسران المبين .

« الحـــديث الثانى »

قال صلى الله عليه وسلم : « الْيَدُ الْعُلْيَا خَـيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ . وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى . وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ » .

المفـــردات

اليد العليا : يد المتصدق . اليد السفلى : يد الفقير المتصدَّق عليه .
من تعول : من تلزمك نفقته . ظهر غنى : يَسَار وزيادة على الحاجة .

يستعفف : يترك سؤال الناس أو يطلب الغنى عن الناس .
يعفه الله : يُغْنِي نفسَه ، و يقِيه ذل السؤال .

الشـــرح

من أعظم نعم الله على عبده سعة الرزق ، و بسطة المال ، وخير المال ما وَقَى به المرء نفســه ذل السؤال . فمن عرف لنفسه حقها و بَغَى لها العزة والكرامة سعى دَأَباً فى تحصيل ما يغنيه عن سؤال الناس ، وما يجعل له يداً عندهم ، ولم يجعل لأحد عليه فضلا .

وأما من رضى بالهوان ، واستطاب الراحة على العمل فلا يبالى أن يريق ماء وجهه ، ولا يؤلمه أن يُهْدِرَ عِزَّته و إباءه فى مسألة الناس .

فالحديث الشريف يحث على العمل لجلب الرزق من طرقه المشروعة ؛ ليكون للقادرين فضلُ التصدق على البائسين والمعوزين ، ولكيلا يكونوا ممن يمدون أيديهم للسؤال ، و يقنعون بما يُلْقَى إليهم من فتات الموائد . كما يحث على الإنفاق فى سبيل الخــير مما زاد على الحاجة ؛ لتكون النفس به سخية . و يجب أن يبــدأ المرء بذوى قرباه ومن تلزمه نفقته ؛ حتى يكون الثواب مضاعفاً والأجر عظيماً . و يرشد الحديث أيضاً إلى أن من تعفف عما فى أيدى الناس صيانة لكرامته أن تهان ، وسعى ليغنى نفسه، فإن الله ييسر له سبيل الرزق ، و يغنيه ، و يحفظ له عفته و إباءه .

« الحــديث الثالث »

قال صلى الله عليه وسلم : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصبِيَّةٍ » .
العصبية : الاعتزاز بالأقارب والدفاع عنهم بالحق أو بالباطل .

الشـــرح

جاء الإسلام والعرب أوزاع متفرقة ، وقبائل مختلفة تتنازعها الأهواء : لارابطة تجمعها ، ولا وَحْدَة تؤلف بينها ، دَأبها الغارات والحروب ، وشأنها التفاخر بالأحساب والأنسـاب ، والمباهاة بالشجاعة ، هَمُّ كل قبيـلة منها الاحتفاظ بكيانها ، و إذلال من عـداها ، ولهم فى ذلك وقائع مشهورة ، وأشعار مأثورة .

كان الواحد منهم إذا دعا : يالَفُلان — اجتمع إليه جميع أفراد القبيلة : لا يسألونه ممن يخـاف ، ولا ما ذا يبغى ، فيكفى لإذكاء نار الحرب بين قبيلتين أن يختلف اثنان منهما على مرعى ، أو على تقدُّم فى سقى الإبل ، ثم ينتصر لـكل قبيلة من يتصل بها بصـلة النسب القريب أو البعيد من القبائل الأخرى . كل ذلك بدافع من العصبية الممقوتة ، والحمق الأعمى ، والتحزب المرذول .

فلما جاء الإسلام عمل على القضاء على هـذه النُّعَرة الـكاذبة ، وجعل للمسلمين وحدة دينية : بهـا يتناصرون ، وعليهـا يجتمعون ، مهما اختلفت بلادهم وتناءت قبائلهم . وقد نزلت الآيات القرآنية بذلك : كقوله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » ، وقوله تعـالى : « يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَـٰكُم » .

وبذلك أيضـاً وردت الأحاديث النبوية ،وعَمِلَ النبى صـلى الله عليه وسلم، ومنه تفضيله أُولِى السبق فى الإسلام والأَثَرِ الواضح فى إعلاء

شأنه مهما كانت قبيلة المسلم منهم ووطنه

فالحديث الشريف يشير إلى أن الإسلام قد قضى على ما كان العرب يتنادَوْن به فى الجاهلية ويتعاونون، وهو المدافعة عن الأقارب بالحق وبالباطل، واتخاذُ النسب الوشيجةَ الوحيدة للتناصر. وقد استبدل بها الإسلامُ وشيجةَ الدين، وعصبية الإيمان والتقوى؛ وبَيَّنَ أن من دعا إلى الجاهلية فليس بمسلم كامل، ولا جدير باسم المؤمن. ذلك لأن الدين يدعو إلى التراحم، ولين الجانب، ومكارم الأخلاق، والعمل لإسعاد الجميع. أما النعرة الجاهلية فقوامها الكبر والتفاخر بالأنساب واغتصاب مال الغير، والتعدى عليه، وما بذلك تقوم دولة، أو تقوى أمة، أو يتقدم بنو الإنسان.

« الحديث الرابع »

قال عليه الصلاة والسلام: « الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ، وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ »

المفردات

تتكافأ دماؤهم: تتساوى أرواحهم. يسعى بذمتهم: يسير بعهدهم أدناهم: أقلهم شأناً. وهم يد: هم قوة متحدة

الشرح

كان العرب قبل الإسلام يتفاخرون بالأنساب، ويتعالَوْن بالأحساب، وكانت قبائلهم طبقاتٍ بعضها فوق بعض، ولا يجوز لمن فى طبقة أن يسامى من فى طبقة أعلى منها، أو يتطلع إلى مصاهرته. ومن تعدى من طبقة

عالية شريفة على فرد من طبقة دونها فلا سبيل إلى القصاص منه أو معاقبته ، ومن تعدى من قبيلة منحطة على فرد من قبيلة فوقها فالويل كل الويل له

فلما جاء الإســلام سوَّى بين النــاس فى الحقوق ، وقضى على جميع الفوارق ، وأمضى الأحــكام على الجميع بلا تفرقه بين شريف ووضيع ، ولا بين عظيم وحقير ؛ فالــكل أمام أحكامه سواسية : «لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » وصــار من قَتَلَ مسلماً قُتِلَ به أيا كان القاتل أو المقتول ، وجَعَلَ كلَّ أمان وميثاق يعطيه واحدٌ من المسلمين لــكافر — كأنه أمان من جميع المسلمين : يجب عليهم الوفاء به ، والدفاع عنه ، وعدمُ نقضهِ أو الغدْرِ بصاحبه ؛ سواء أكان من أعطى الأمان أميراً أم والياً أم دون ذلك ، كى يشعر كل مسلم أنه معاضَد من جميع إخوانه ، معتز بهم

وكذلك قرر الإســلام أن يكون جميع المسلمين متحدى الــكلمة ، مجتمعى الرأى والقوة على جميــع من ناوأهم ، أو حاول التعدى عليهم ، أو انتقاصَ أطرافهم ؛ فلا يُشْغَلُ حاكم أو أمير أو أى واحد فى الأمة بولايته ، أو بأمته ، أو بمصــالحه الخاصة — عن مصــالح إخوانه المسلمين فى الأقطار الأخرى ، بل ينبغى أن يشعر كل واحد بما يصيب الآخر ، ويحس باحساسه ويهُبَّ لنصرته ومعاونته ، فبذا تَعِزُّ كلمتهم ويَرْهَبُهم أعداؤهم ، ويعيشون أقوياء الجانب ، ذوى بأس شديد

« الحديث الخامس »

قال عليه الصلاة والسلام : « لَا يَــكُنْ أَحَدُكُمْ إِمَّعَةً : يَقُولُ : أَنَا مَعَ النَّاسِ إِنْ أَحْسَنَ النَّــاسُ أَحْسَنْتُ ، وَإِنْ أَسَاءوا أَسَأْتُ .

وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا ، وَإِنْ أَسَاءوا أَنْ تَجْتَنِبُوا إِسَاءَتَهُمْ » .

المفـــردات

الْإِمَّعَةُ : الذى ليس له رأى يثبت عليه . وَطِّنُوا : عَوِّدوا

الشـــرح

يُرشد الحديث إلى فضيلة يجب أن يتصف بها المسلم ، وهى أن يكون مستقل الرأى : لا يمشى إلا حيثُ يَهْدِيه عقله وتفكيره ، ولا يعتنق من الآراء والعقائد إلا ما يقوم عليه الدليل القوى، والحجة الواضحة . فإذا عُرِضَ عليه أمرٌ ، أو دُعِىَ إلى شأن خطير فكر وتدبر ، واستعرض جميع وجوهه، وكوّن له فكرةً خاصة : هى التى هداه إليها تفكيره ، وأوصله إليها بحثه واجتهاده ، ثم يكون عمله فى الحياة على ضوء ما وصل إليه ، وبذلك يحترم نفسه ، ويَستقيم أمره

ولا ينبغى أن يكون الإنسان تابعاً لغيره من الناس : إن أصابوا أصاب ، وإن أخطئوا أخطأ ؛ لأنه بذلك يفقد شخصيته ، ومقومات تكوينه رجلاً ذا وجود ورأى : يُبْصِر بعين نفسه لا بعين غيره . فإذا أراد الاحتفاظ بإنسانيته وعزته وجب عليه أن يبحث عن الحق بعقله وبصيرته ، فإذا حالفه الصواب مع الآخرين حمِد مَغَبَّة سُرَاه ، وإن أساء غيرُه لم يتورط فيما تورطوا فيه ، فلا يناله ما يحل بهم ؛ فإن الإنسان لا يُعْذَر إذا ساءت عاقبته بمتابعته لغيره ، وتقليده سواه .

وإذا كان الدين الإسلامي يمقت التقليد فى العقيدة الدينية ، ولا يرضى من المؤمن إلا أن يكون إيمانه عن يقين وبرهان — فإنه يمقت كذلك أن يكون ما يختطه المسلم لحياته تابعاً لرأى غيره فى جميع الحالات ، ويوجب عليه أن يتابع النـاس فى مسائل الخير وطرق الإحسان . أما إذا وضح له الضرر فليس من الحزم أن يتابعهم .

« الحديث السادس »

قال عليه الصلاة والسلام : « الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ . وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الْأَمَانِى » .

المفـــردات

الـكيس : الحازم الفطِن . دان نفسه : قهرها وحاسبها على ما تعمل .
ما بعد الموت : يوم القيامة حيث يحاسَب كل إنسان على ما عمل .
هواها : شهواتها وما تطلبه . الأمانى : ما يتمناه الإنسان ويشتهيه .

الشـــرح

النـاس صنفان : صنف حازم عاقل بصير بعواقب الأمور ، وصنف ضعيف عاجز : لا يقوى على عظائم الأمور ، ولا يستطيع كبح جمـاح نفسه وشهواته .

فالأول يقهر نفسه ، ويخضعها لحـكم العقل وما تقضى به المصلحة ، ويأبى أن يمكن لشهواته من عقله ، وأن تطغَى لذائذه وميوله على رشاده وســداد رأيه ؛ فهو يفكر فى عواقب الأمور ، ويسترشد بهدى بصيرته ،

ويزن الشيء قبل الاقدام عليه ؛ فإن وجد فيه الخير والمنفعة . وأنه لا يدنس شرفه ، ولا ينقص من كرامته ، ولا يزرى بمروءته ، ولا يُغْضِبُ ربه فيستوجبَ عذابه ومقته — أقدم عليه ، وإلاَّ اجتنبه ، ونأى عنه ؛ معتقداً أن هناك إلٰهاً يحاسبه على ما قدم من صغيرة وكبيرة ، وأن هناك يوماً آخر يُجْزَى فيه كلُّ إنسان على ما عمل من خير أو شر ، وأن فيه جنة عرضُها السموات والأرض أعدت للمتقين : الذين يجتنبون المعاصى ، ويأتمرون بأوامر الله ، وناراً وَقُودُهَا النـاسُ والحجارة أعدت للعاصين ، فيتوق لأن يكون من أصحاب الجنة ، وينفر أن يكون من أصحاب النار .

أما الثـانى فقد طغى سلطان شهواته على عقله ، وغَشَّى على بصيرته زُخرفُ الدنيا وزينتها الفانية ؛ فأعماه عن سبل الهداية والرشاد ، وأضله عن طريق الحق والسداد ، وصارت نفسه وميوله هى صاحبة الأمر والتصرف المطلق فى شـئونه — والنفس أمارة بالسوء — فيعطيها كلَّ ما تشتهى ، ويمنحها كل عزيز : من كرامة وعزة وإباء ومال وصحة : لا يبالى بما يصير إليه أمره وينتهى إليه حاله ، ويبلغ به الحمق والجهل إلى أن يتكل على عفو الله ومغفرته ، ويُعَلِّلَ نفسه بأن فى رحمة الله متسعاً لمثله ، أو بأن فى فسحة الأجل ما يعوض ما فاته ؛ وما درى أن الله لم يكتب رحمته للمُصِرِّين على المعاصى ، والجاهرين بارتكاب الكبائر ، بل كتبها للتائبين : النادمين على ما قصروا ، والمستغفرين ربهم مما أجرموا ، وأن لكل أجل كتاباً لا يعلمه إلا الله وحده ، وأن الموت يأتى بغتة والبنية سليمة ، والقوة موفورة فمن يكفل له سعة فى العمر ليستدرك فيها ما فاته ؟

فالعاقل من يجعل ميوله تابعة لعقله وأوامر ربه ، ولا يتمنى من المكافآت

إلا بمقدار عمله ، وليس ثواب الله إلا لمن آمن وعمل صالحاً فأولئك يُجْزَون الجزاء الأوفى .

« الحـديث السابع »

حدث أبو ذر قال : إنِّى سابيت رجلاً ، فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ ، فقال لى النبى صلى الله عليه وسلم : « يَا أَبَا ذَرٍّ ، أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ . إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ . جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ ؛ فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ . فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ » .

المفـــردات

سابيت رجلا : وقعت بينى و بينه مشاتمة .

الجاهليـة : ما كان عليه العرب قبل الإسـلام من خشونة وغلظة .

الخَوَلُ : الخدم والعبيد ، مفرده خائل .

الشـــرح

غضب أحـد الصحابة من آخر فتشاتما فعَيَّرَهُ الصحابى بأمه وكانت سوداء ، فبلغ ذلك النبىّ صلى الله عليه وسلم فأنكر عليه هذا الخلق : وهو تعرُّضُ إنسان لآخر بذكر أمه أو غيرها ، وليس لها دخل فى سبب الخصام وقال له : إنك لا تزال فيك خصلة مما كان فى العرب قبل الإسلام : وهى التجاوز المُزْرِى فى الخصومة باقحام الأب والأم فى المشاجرة . ثم أوصاه بوصية قيمة تنفعنا فى معاملة خدمنا . فبَيَّنَ له أنهم إخوان لنا فى الإنسانية

والدين ، نحتاج إليهم ليعاونونا فى أمور معاشنا ، ولولاهم لنالنا مشقة وتعب كبير ، ولتعطلت مصالحنا ، وعجزنا عن القيام بشؤوننا ، واختل نظام حياتنا ؛ فليس من الإنصاف والوفاء أن تكون معاونتهم لنا سبباً إلى تحقيرهم وإهانتهم ، بل يجب أن نَعُدَّهم — كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم — إخواناً لنا ، وأن يُطْعِمَ كل منا خادمه أو عبده من جنس ما يأكل ، ويلبسه من جنس ما يلبس ؛ لأن الخادم هو الذى يطهو الطعامَ ويُعِدُّهُ ، فمن المروءة ألاَّ يُحرمَ منه ؛ لترضى نفسه ، ومتى كانت نفسه راضية منشرحة نشطت فى خدمتنا ، ورعاية مصالحنا وحفظ أموالنا .

وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن تكليف المخدوم خادمه ما يشق عليه ، أو يثقل كاهله من الأعمال ؛ حتى لا يسأم العمل ، فيترك الخدمة ، أو يمرض . فإن دعت الضرورة أن يكلفه عملاً شاقاً فَلْيُعِنْهُ بنفسه أو بخادم آخر أو نحو ذلك .

فهذا الحديث يرفع من شأن الخدم والعبيد ؛ فيجعل لهم حقوقاً قِبَل سادتهم ، ويرشد السادة إلى أن يعدلوا بين خدمهم ، وألا يُغْفِلوا شأن إنسانيتهم ، ورابطةَ الإسلام التى بينهم ، وينهى عن سب الخدم ، والتعرض لآبائهم وأمهاتهم ، ويحث على التواضع وعدم الكبر ، وهذه — ولاشك — طريقة سنها الإسلام وحده لسياسة طائفة كبيرة من الناس هم الخدم والعبيد .

« الحديث الثامن »

قال صلى الله عليه وسلم : « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَوَاصُلِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ : إِذَا اشْتَكَى عُضْوٌ مِنْهُ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ » .

المفـــردات

توادهم : محبة بعضهم بعضاً . تراحمهم : إشفاق بعضهم على بعض .

تواصلهم : تزاورهم وتهاديهم . تداعى : دعا بعضه بعضاً . سائر : باقى

الشـــرح

مَثَّلَ النبى صلى الله عليه وسلم حالَ المؤمنين وما يجب أن يكونوا عليه من إحساس كل واحد بما يصيب الآخرين — بالجسد الواحد . فكما أن قوة أىّ عضو فيه — قوة لسائر الأعضاء : تكفل قيامه بوظيفته على الوجه الأكمل ، ومرضَ أىّ عضوٍ فيه مرض لباقيه يُشْعِرُه بالألم ويُعْجِزُه عن القيام بعمله — فكذلك يجب أن يكون شأن المسلمين . ينبغى أن يرى كل واحد منهم أنه عضو فى جماعتهم ، ويعملَ على هذه العقيدة : يسرّه سرورُ أخيه المؤمن ، ويشرح صدرَه أن يراه فى قوة وعزة وخير ، ويؤلمه أن يَحُلّ به أذى ، أو يعتدىَ عليه أجنبى . فإن كانوا من أمة واحدة أعان بعضهم بعضاً ، وسهل القادر منهما سبل العيش للآخر ، وحاطه بما يقيه أذى المعتدين وكيدَ الكائدينَ ، وإن كانوا من أمم مختلفة تبادلوا أسباب التواد والتواصل ، ليعرف كلٌّ أحوالَ الآخر : من عسر أو يسر ، وقوة

أو ضعف ، ليَمُدَّ إليه يد المعونة إن احتاج إليها ، ويرشِدَهُ إلى ما يرقى شئونه ، فتتوثق الصلات ، وتقوى الشوكة . ولا ينبغى أن يكون حرباً عليهم : يسعى لأخذ ما فى أيديهم ، أو يكون عوناً للأجنبي على استلاب حقوقهم ، وانتقاص أطرافهم .

« الحديث التاسع »

قال عليه الصلاة والسلام : « انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِماً أَوْ مَظْلُومًا . قِيلَ : أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا . فَكَيْفَ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ ظَالِماً ؟ قَالَ : تَحْجِزُهُ عَنِ الظُّلْمِ ؛ فَإِنَّ ذٰلِكَ نَصْرُهُ » .

الشـــرح

يقضى الدين الأسلامى على المسلمين أن تكون رابطتهم قوية ، وأخوتهم متينة : تحفز كل واحد إلى السعى فى خير أخيه ما استطاع : بمساعدته على الخير ، وكفه عن الشر . فإذا وقع بواحد منهم حيف ، أو ناله ضُرٌّ بادر الآخر إلى نصرته ومعاونته ؛ حتى يرفع الظلم عنه ، ويرد إليه حقه ؛ سالكا لذلك طريق الحكمة واللباقة : التى توصل إلى الغرض بأدنى كلفة وفى أقل زمن . وذلك إما بالكلام إن أفاد ، أو بالمساعدة بالمال أو بالجاه ، أو بث شكايته لمن يستطيع إنصافه ، أو بالقوة إن لم يكن منها بد ، ولم يترتب عليها ضرر أكبر منها

وإذا أراد واحدٌ ظلماً واعتداء على غيره فالإسلام لا يبيح لأخيه أن يُعينه على ما يبغى ، أو يسهلَ له طريق الشر والنكاية بالناس ، بل يوجب

عليه أن ينصره : بأن يحول بينه و بين قصده ، و يعمل على إحباط ما ينويه : إما بتعطيل الوسائل التى يعدها ، أو بالاستعانة عليه بمن هو أقوى منه بطشاً ، وأرهب سلطاناً ، ولا يدعه يرتكب ما يؤذى غيره ، فيتعرض للعقوبة وما تجر وراءها : مما يشين سمعته ، و ينغصُ عيشه ، فضلاً على سخط الله عليه ، و إدخاله عذاب الجحيم .

و إنما كان هذا نصراً منه لأخيه ؛ لأنه إذا تُرِكَ وشأنَهُ ؛ فاعتدى على نفس غيره أو ماله استحق القصاص والعقوبة ، فساءت ذكراه ، وأرملت زوجُه ، و يَتمَتْ أطفاله ، وتلوث شرف أسرته . أما إذا منعه عن الشر فقد حفظ حياته ، و بقيت صحيفة ذكراه نقية بيضاء ، ونجا أولاده وأسرته من عواقب جرمه . وهذا — من غير شك — نصر بعيد الأثر ، طيب الثمر .

« الحديث العاشر »

أَتَى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم رجلان يَخْتَصِمانِ فى مواريثَ لها : لم يكن لهما بَيِّنةٌ إلا دعواهما ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ . وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِيَ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ . فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ بِشَيْءٍ فَلَا يَأْخُذْ مِنْهُ شَيْئاً ؛ إِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ » ، فبكى الرَّجلان ، وقال كل منهما لصاحبه : حقى لك . فقال لهما النبى صلى الله عليه وسلم : « أَمَّا إِذْ فَعَلْتُمَا مَا فَعَلْتُمَا فَاقْتَسِمَا وَتَوَخَّيَا الْحَقَّ ، ثم اسْتَهِمَا ، ثُمَّ تَحَالَّا » .

المفـــردات

يختصمان فى مواريث لهما : يتنازعان فى ميراث : كل يدعى أنه له .

إنما أنا بشر : لست بملك فأعلمَ الغيب ولـكنى إنسان .

ألْحَنُ بِحُجَّتِهِ : أكثر معرفة بإقامة الأدلة وأظهر بيـاناً لدعواه حتى يخيل أنه محق .

توخيا الحق : اقْصِدَا العدل فى القسمة ولا تجورا .

استهما : اقترعا على القسمين .

تحالاَّ : لِيُبْرِئْ كلٌّ منكما صاحِبَهُ مما عساه قد أخـذ من غير حق .

الشـــرح

تنازع رجلان فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم فى تركة ، فادعى كل منهما أنها ملك له : ورثها عن قريبه . فرفعا أمرهما إلى النبى ليفصل بينهما ولم يكن لأحدهما بينة تثبت الحق له ، فوعظهما الرسول صلى الله عليه وسلم عظة بالغة قبل أن يقضى فى موضوع النزاع ؛ عسى أن يرجع المبطل منهما ، ويكف عن إدّعاء ما ليس حقاً له ، فقال لهما : إنى بشر مثلـكم : لا أعـلم الغيب ، ولا ما خفى فى الضمائر إلا ما يوحى الله به إلىّ من القرآن وأمور الشرع ، فاذا حكمت فسيكون حكمى مبنيـاً على ما يظهر لى من قولـكما ، والله يتولى محاسبتكما على السرائر . وربما كانَ أحدُكما أفصحَ تعبيراً ، وأقوى تأثيراً وأعرف بصوغ الحجج ، وجِلاَءِ الغامض ؛ لحذقه وطول مرانه وسرعة بديهته ، فأحكم له وهو فى الواقع ليس بصـاحب الحق ، ويكون الآخر دونه فى القـــدرة على الدفاع والحوار ، فيقع فى نفسى أنه مبطل ،

فأرفض دعواه وهو محق . فمن قضيت له بحق أخيه فإنما أقضى له بقطعة من النار : إن نفعَتْهُ فى الدنيا فسيصلى نار جهنم فى الآخرة ، وتكون عاقبة أمره خُسْراً ، وخير له أن يترك الحق لصاحبه ولا يستحله .

فبكى الرجلان من شدة التأثر ، وتنازل كل منهما عن حقه للآخر دفعاً للشبهة عن نفسه ، ودرءاً لعذاب النار عنه يوم القيامة .

ويؤخذ من هذا الحديث أمور منها :

(١) أن الدفاعَ عن الباطل ، والمحاماةَ عن الزور والكذب — فيهما إثمٌ كبير ، وخاصة إذا اسْتُخْدِمَت المواهب الخطابية وقوة البلاغة فى إلباس الباطل ثوب الحق . أما إذا استعملت فى نصرة الحق ، و إدْحَاض الزور مع البعد عن التشهير ، وثلب الأعراض — فذلك ما لا حَرَجَ فيه لأنه دفاعٌ عن الحق ، ومعاونة على إقامة العدل ، و إيصال الحقوق لأربابها ودَرْء للظلم عمن لحقه ولم يستطع بنفسه تبيان أمره بالحجج الدامغة .

(٢) ينبغى للقاضى قبل الفصل فيما يعرض عليه من الخصومات أن يتقدم إلى الخصمين بشىء من الموعظة والنصح ؛ عسى أن يكون من ذلك ما يزع المبطلَ عن ادعاء ما ليس له بحق ، وينتزعُ من نفسه ما ملأها من الشحناء والعناد وحب الأثرة ، وتَمَلُّك ما ليس له بحق ، وبذلك تزول أسباب التشاحن ، وتصفو النفوس ويظهر الحق .

(٣) أن الرسول صلى الله وسلم إنسان من البشر : يسلك فى قضائه وحكمه الطريق القضائى المشروع ، فيبنى أحكامه على ما يظهر من الأدلة وطرق الإثبات التى تقوم لديه : من اعتراف أو شهادة أو يمين ، أو ما

شاكل ذلك من طرق القضاء ، والله وحـده يتولى حساب الناس على ما يكتمونه من حقائق أمورهم ، فإنه يعلم السر وأخفى .

(٤) أن من توصل إلى التأثير فى القاضى بسحر بيانه ، وقوة فصاحته فحكم له بما لا يستحق — لا يحل له أن ينتفع بما حكم له به ، بل يصـير ذلك من أسباب تعذيبه يوم القيـامة ؛ لأنه قد اغتصب حق غيره بدون مسوغ .

(٥) إذا تسـاوت دعويا الخصمين ولم يوجد ما يرجح إحداها على الأخرى — وجب أن يُحْـكَمَ لهما بقسمة ما تنـازعاه ، وينبغى أن يقترعا بعد القسمة ؛ كيلا يكون فى نفس أحدهما غضاضة من قِسْمِهِ الذى ناله بعد الاقتراع ، وأن يُبْرِئَ كل واحد منهما الآخرَ ممـا قد يكون فى ذمته من زيادة فى النصيب الذى خصه ؛ فبذلك تصفو النفوس ، ويُقْضَى على كثير من أسباب البغضاء والشحناء ، ويتم الوئام والسلام .

والحمـــد لله أولاً وآخراً

فهـــــرس